

مخلوقات الاشواق الطائفة ومحطت السكك الحديدية



ادوار الخراط

إدوار الخراط

مخلوقات الأشواق الطائفة ومحطة السكة الحديد

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٩٩٦م

وتُطْمِئِنِي الْأَشْوَابُ حَتَّى إِذَا بَدَأَ
جَمَالَكَ لَمْ أَمْلِكْ لِسَانًا وَلَا نَسْطَقًا

«طهارة القلوب»

الريفي

وجه مقطوع

«وعلى وجه الغمر ظلمة»

قلت للوجه الطافي على الغمر: لماذا.. لماذا تركتني؟

كانت في نظرتي إلى معرفة القديم.

كنت أحاجه ولم يجاوبني.

قالت: وجهك، من على جنب، الآن فقط أراه. مثل وجه

أخناتون. متوقف وحساس. واستدركت: لا تظن أنني أغازلك.

أجبتها بأسها: الآن فقط أدركت أنك فعلاً تغازليني. فقط عندما

قلت. ولن أفوت الفرصة.

ضحكت عن أسنان قوية، لاحظت أن السنتين العلويتين مربعتان

تقريباً، كبيرتان، فيها أثر التدخين.

أحسست بحرارة جسمها جنبي، تحت المائدة المزدهجة بالمدعوين

والمدعوات، والفضيات الثقيلة وأطقم «ليموج». وكانت القاعة عالية

التدفئة، والسفرجي النوبي يملأ لي الكأس الكريستال المضلع الذي

يتموج بصهبة النيذ ويشع بشرير الضوء الحاد.

رفعت كأسها لي، في حركة تواطؤ شبه معلن، وجهها الخلاسي

الداكن يلمع بالانفعال وحمياً المائدة. رأيت قطرة عرق كاللؤلؤة على

بلاطة الصدر الغامقة بين الشدين المدورين الصغيرين، من غير

سوتيان، متباعدين تحت بلوزتها الحريري. كان لون جلدها الداخلي بُنيًا محروقًا أكثر من لون وجهها، غضًا ومثيرًا.

قالت، وقد ضبطت نظرتي: هل رأيت وجه سييلْيوس؟
فلم أرفع عيني.

قالت، بفقهِ وتوسُّل: ما زلت مسحورةً بقوته الصخرية.
والعلاقات المتعددة الصوت بين أعمدة الأرغن المعدنية وهذا الحجر
الخام الذي يرسو عليه الوجه المقطوع. هل رأيته؟

قلت مسيرًا، جادًا، بنصف ابتسامة: نعم. ذلك التوتر الخاص
بين الخفة والرسوخ، بين الموسيقى والصخر.

سوف أقول في زمانٍ سحيق: ما أشبه وجه سييلْيوس بالوجه
الواحد لرجالها الآخرين، مربع، صارم، نهائي السلطة. وما أبعد
وجه أختاتون عن هاتور.

أحسست فخذها يستريح إلى جانب ساقي وأغواني الخط المتعرج
بين بياض الكف والسواد - تقريباً - في ظاهر اليد، وهي تمد لي
كأسها، ثانية.

سورٌ من الحجر الأبيض المش أمام عصف الأمواج العاتية.

قلت، وأنا أضغط بجسمي ضغطاً هيناً على فخذها، وقد
انتصبتُ:

- عندما تعودين إلى أنجولا، بعد الاستقلال، هل تعزمين العمل
في الحجر، الرخام، ونحوها، هل تفويك مادة مثل الخشب
والألياف، أوراق الشجر أو حتى القش والقماش والبوص إلى آخره؟

يعني، ماذا أقول؟ هل أقول المادة العرضية الزائلة السريعة اليبلى؟ الفن الذي يُسقط ادعاءات الخلود يعني.

قالت: أنت أسلافك سادة الخلود، أليس كذلك؟

قلت: الخلود؟ كل مادة إلى فناء. كل شيء إلى فناء.

كانت نظرة عينيها الخضراوين، من فوق وجتيتها الداكتين العظمتين قليلاً، مرهفةً ومشتعلةً بحزن، وشوق. بينا شفتاهما اللحيمتان، فيها لَمَى وحمرة مظلمة، من غير «روج»، مفتوحتان، لا تنطبقان، توحيان بشهوية الأسلاف.

وكان السفير يتحدث بنبرة دبلوماسية هادئة وعليها سياء الموضوعية عن الغارة الأخيرة على بحر البقر، وأجاب طارق نور الدين بوصف ضافٍ عن النقاط الحصينة، على الشط، وقال إنها مكونة من ثلاثة طوابق على الأقل - بعضها أكثر - وإنها تغوص في باطن الأرض وترتفع واجهاتها الحجرية حتى تصل إلى قمة الساتر الترابي، بعلو إجمالي ٢٥ متراً أو أكثر من القاع للقمة، وبطول ٢٠٠ متر تقريباً. وكل طابق من عدة دُشَم من الإسمنت المسلح المقوى بقضبان السكّة الحديد المنزوعة وألواح الصلب. وبين كل طابق وآخر عازل من الشبكات الحديدية والحرسانة المسلحة والرمال المدموكة بسمك مترين تقريباً. وقال إن كل دُشمة فيها عدة فتحات تمكّنها من الاشتباك في جميع الاتجاهات، والدُشَم مجهزة بقطع المدفعية من عيارات مختلفة، وفيها دبابات أيضاً، وتتصل بعضها ببعض بخنادق مواصلات عميقة مبطنّة بألواح الصلب وشكاير الرمل، وقال إن هذه النقاط معدة لتلقي قنابل ألف رطل دون أن تتأثر، وإن الإمدادات فيها - ذخائر ومياه وتعيينات - تكفي لمدة لا تقل عن شهر. وقال إنها

يمكنها أن تقيم سواتر من النيران متصلة على طول الشط، دون ثغرة،
وأنها مصممة بحيث لا يمكن أن تُنال.

كان صوته تفصيلاً، محدداً، ليس فيه ما يوحي باليأس.

قالت لي: هل قابلت أبيلا هيلتونين؟

قلت، بغضب: نعم. كلمتني هي أيضاً عن أختاتون. امرأة صغيرة
القد، كيف صنعت هذا النصب العملاق...؟ هل لاحظت القوة
في أصابعها الرقيقة؟

كانت مدام عايدة، زوجة السفير، تجلس على مائدة قليلاً، في
الجانب المقابل للمائدة. (عرفت فيما بعد أنه وزير مفوض فقط وأنه
أحد ثلاثة أقباط وصلوا إلى هذه الدرجة في السلك الدبلوماسي،
أحدهما في الملايو والآخر في الكونغو)، وكانت نحيلة وأنيقة جداً
وصعيدية الملامح، ذكرتني فجأة بعايدة مكرم عبيد وسألت نفسي:
تري أما زالت تعيش؟

قالت لجارتي بالفرنسية، بلهجة باريسية لا تشوبها أدنى لكنة:

- مارتا، هل خلصت من بورترية أجستينو نيتو؟

ابتسمت جارتي وقالت، بلكنة برتغالية قليلاً:

- وهل يمكن أن أخلص منه أبداً؟

وعرفت فيما بعد أن علاقة حميمة تربط بينهما.

لم أتمالك، فضحكت بصوت عال، لعلّ النيذ كان قد صعد إلى
رأسي، التفتت إلى الأنظار لحظة، ثم عاد لفظ الحديث في الحرب
والسياسة وفضائل أصناف الأكل المصرية وميزان القوى الدولية، مع
إيقاع اصطدام الشوك والسكاكين على الصيني، وارتفاع الكؤوس

وأمواج المودة التي تأتي مع الطعام الجيد والشراب الجيد.

تذكرت أنني سأقول فيما بعد الزمن الأخير:

- عذبتني الثانية لسييلوس. زلزلت قلبي.

وأنا سوف تقول:

- الموسيقى بناء وتشكيل في ذاته. تصميم نصي بحت. ليست هزة

للقلوب، ولا توحداً بمشاعرك أنت. ليست عاطفية.

أم أنني لم أقل، ولم يحدث؟

في قلب الليل كانت بين ذراعي وساقَي عارية وصلبة القوام
وأملوداً لدناً معاً، حارة وباردة الجلد ملساء معاً. جسماً خالصاً.

تقاطع هذا الجسم كاملة، برونزية الصياغة. كانت أصابعها المحنكة

تتحسني وتعرك انتصابي تعجم عوده بدربة ومعرفة. مرّ بخاطري

خطفاً: كم مرة فعلت هذا مع الرجال، وثمانيلهم؟ وكأنما قلت،

مخطوفاً: ما أهمية ذلك، بل ما معناه؟ وكان ريقها رطباً وشفتاها

الكبيرتان فيها سخونة، وملاءة خاصة. وكانت تضحك فجأة،

وحدها، من سعادة اللحظة. ولم تكن تراني.

الأزهار المرة صلدة.

عندما خرجتُ على وجه الصبح في انتظار التاكسي الذي طلبته لي

بالتليفون، باللغة الفنلندية، والذي سوف يحملني إلى غرفتي في

الفندق - وقد رأيت وحشتها وخواءها من الآن - صدمتني هبات البرد

ونفذت إلى عظمي. أحكمت لفّ «الإيشارب» الصوف حول رقبتني

تحت ياقة المعطف الثقيل. كانت أكوام الشج الصغيرة القدرة على

جانبي الأرصفة ومفارق الطرق تذوب ببطء وتسيل بماء قليل له خربير

مسموع في صمت ما قبل الفجر. وأنوار مصابيح الشوارع صفراء
تومض بهالاتٍ غير منتظمة الاستدارة في بلل الهواء المحمل بقطرات
دقيقة جداً من ماء الضباب، الأبنية الراسخة تبدو لي ثقيلة ومغلقة
وجدرانها السميقة لا منفذ منها، وطأتها لا تحمل. ورأيت على ناصية
الشارع الكلمات تنير وتنطفئ بالنيون: «MILK BAR». ووراء
الواجهة الزجاجية الممتدة بطول المبنى، ساطعة من الداخل بالنور
الثابت، قامت علب الزبادي المرصوصة في أهرامات منتظمة، وأنواع
الجبن في أقراصها المدورة الصفراء الصلبة ومربعاتها البيضاء الطرية
المتناسكة وزجاجات اللبن متفخة البطون متعددة الأحجام والمعلبات
الأخرى التي لم أعرف أن أقرأ ما عليها ومكعبات الزبد في أغلفتها
الفضية، وراء زجاج الثلاجة الضخمة، كلها أنيقة كأنها موسيقية
النسق، تحسب أنه لا يمكن أن يمسخها سوء.

تحت الواجهة الزجاجية العريضة تماماً، كان الرجل راقداً على
الرصيف المبلول، معطفه مفتوح عن بطنه الضخم الذي يرتفع
وينخفض في إيقاع التنفس الصعب، وقميصه مشعث خرجت أطرافه
من حزام البنطلون، وجهه محمرّ مريداً ومغمض العينين في نسيانٍ
تام. قلت: هل تتركه هذه المدينة، هذا العالم، كما تركهما؟ قلت:
ألن يسعفه شيء، ولا أحد؟ قلت: أبحاجةٍ هو إلى نجدة، أم في هذه
الظلمة نجدته؟ ودهشت إذ جاءني من بعيد صياح ديك، طويل
وموقّع في السكون، ونباح كلب لا يكاد يستبين. كأننا في قلب
الريف. بينما التاكسي يصل إليّ في وسط المدينة بعهاراتها الشائخة
الصامتة، ونفيره، من النوع القديم، ينبهي: «أو. . أو. .» موجزاً
وعميق النبرة. عاد إليّ فجأة ليل الطفولة المتوهج أبداً بظلامه الخاص

وتحرّكت أشواق الطفولة القاهرة، وقلت: ما أكثر ما يحمل الفجر من
مرارة!

قلت في ليلي: أيسقط دمي في الشوارع أمام وجهك؟
قلت: هربت من وجهه الأرض والسماء، ولم يجد لها موضعاً.
وقلت: كثير التحنن. لم يحول وجهه عنك. لكنه لم يتكلم. لم
يجاوبني.

كان قلبي ممتلئاً أشباحاً والظلمة التي في كاملة.

وجه الحجر لم يتدحرج عن فم القبر. هل جاء، ومضى؟
تضرّعت: مدي أصابعك والمني فمي. لكي يضيء وجهك
كالشمس في داخلي وتصير جوارح جسدك بيضاء كالنور. أفي هذا
خلاصي؟

وجدت نفسي طعيناً. آثامي مدفونة في أرض جناتي. أبيت طول
الليل على شواهد المقابر وأقيم طول النهار محرقة متقلدة لها دخان دسم
يرتد إليّ دون رسالة.

كانت على جدار غرفتي في الفندق بقعة بيضاء ترفرف وتعطيني
حسّاً بأنها فراشة كبيرة جاءت من الأشجار تحت أنوار الشارع ودخلت
من النافذة. ضربتها بيدي، بخفة، كأنني أهشها. تضخمت فجأة
واتسعت وانفجرت، دون صوت، وسالت بعصارة بيضاء نقية
وكثيفة كالعجين. ومن السائل البطيء الثقيل تجسّد لي وجهها،
معدّبة بالألم، ممزّقة، تصرخ بالشكوى دون أن تقول كلمة واحدة،
وتسيل العصارة البيضاء من عنقها. ضربتني قتلتها. من هي؟ هل
أعرفها؟

وبجانب الوجه الذبيح، كانت البقعة البيضاء تكبر، وتتجسم،
تتخذ معالم وجه آخر، غامض وصلب، دون جسم، دون عنق،
نظرته ثابتة. هو، يعرفني. رأيت أن ورق الجدار كان باهتاً ومنقوشاً
بزهور صغيرة حمراء وصفراء دقيقة الخطوط.

وما زال وجه الفتاة المقتولة يحمل لي إداة نهائية.
الإثم الذي لا يُطاق.
تورقني الجريمة.

١٩٨٩/٧/٢١

أشواق المايا

«مُخَايَلَةٌ وَعَدَمٌ مُجِيقٌ»

عندما أوشك القطار على الوصول، وتباطأت دقائق سرعته قليلاً، كانت رائحة البصل في الحقول، بالليل، تكاد تغلبنى. كان الجو حاراً، والهواء شحيحاً، والنافذة مكسورة.

كنت قد قرّرت فجأة أن أسافر، ولو وحدي، بأخر قطار لألحق الليلة الكبيرة، لم أكن قد حضرت مولد مارٍ جرجس من قبل، قلت: أسهر طول الليل في المولد، وأعود بقطار الفجر.

نفذت بصعوبة، وسط الزحام، من الباب الحديديّ العالي مفتوحاً على مصراعيه، وكنت أنقل قدمي بحرص وأنا داخل حوش الكنيسة بين أكوام النائمين والجالسين على الأرض، في حلقات وجماعات وعائلات، افترشوا الحصير والأحزمة الصوف القديمة والأبسطة القماش المتربة، الأطفال عُراة تقريباً تحت ملاءات السرير عليها آثار البقع المصفرة، والنساء بقمصان النوم عاريات الأكتاف، والرجال بالجلاليب أو بالفانلة والبنطلون، وبينهم العجائز يقظات متربصات لَمَن كَدَش شعرهن الأشيب في أطرافه آثار الحنّة، وعليهن الطُرح والفساتين قديمة الطراز مغبرة السواد.

عندما دخلت صحن الكنيسة الغاصة بالناس كانت القبة شاهقة ومعممة، النساء على جنب، غطين رؤوسهن، يحاولن إسكات أطفالهن، والرجال واقفين أو جالسين على الدكك الخشبية اللامعة، يشاركون في الصلاة بالقبطية والعربية، كانت أمواج القُدَّاس الليلي تعلو وتخفض تحت الأنوار المتعددة البؤر من السقف وتحت تيجان الأعمدة الرخامية الرومانية الشكل. صور المسيح وتلاميذه القديسين تبدو باهتة وتحتها نور الشموع أصفر وضعيف. أمام حجاب الهيكل صورة هائلة لمار جرجس يطعن الحية العظيمة، والنور الكهربائي يومض على زجاج الصورة ويكاد يطمس معالمها.

انتظرت قليلاً ثم خرجت إلى الحوش المزدهم، ومررت على باب الكنيسة بالقس في ثيابه السوداء يصلي ويُعزِّم ليخرج الشيطان من امرأة مصروعة، ولاحظت حلل الطبخ ويوابير الجاز مطفأة تحتها: قلت: تعشوا من زمان، وناموا، أو سهروا في انتظار العريس.

كانت رائحة البصل من الحقل قد خفت الآن كثيراً ولكن أنفاسها ما زالت معلقة في السماء المكتومة.

أصداء القُدَّاس غير المفهومة تأتي من داخل الكنيسة والتسابيح والترانيم من المولد، مختلطة بأغاني الراديو والمواويل وترجيعات المزامير وإيقاعات الصاجات السريعة المجوفة النبرة وشكاة السمسية من خيام الأذكار وغناء الرجال القوي الحشن من السرادقات المفتوحة المقامة على قضبان خشبية رفيعة، بين صفوف أكوام البطيخ المفروشة على الرمل وعربات الفاكهة واللبن والسوداني والمجيلي والكشري، وباعة الفلافل التي تطش في طاسات الزيت الضخمة الفوارة، ونصبات

المقاهي المرتجلة بموائدها الصفيح، ومدخني الشيش والجوزة،
والوشامين الذين تتقد على البرك الخشبية أمامهم فوهات هب حادة
قصيرة من اسطوانات الغاز الصغيرة يرسمون بالإبر الدوارة الدقيقة،
والوشم الأزرق، علامات الصليب على معاصم النساء وصور الشهيد
العظيم على صدور الرجال.

فجأة رأيت المرأة الكبيرة القديمة مسنودة من الخارج على الباب
الحديدي لحوش الكنيسة.

كان لها إطار مذهب باهت الآن سقطت قشرته عند الأركان،
مشغول على هيئة أزهار وأغصان متشابكة متلوية على الطريقة القديمة
بينها وجوه الشاروييم الصغيرة المدورة المتفخخة الخدود. وكانت ناصعة
الزجاج، صافية بنقاء لا تشوبه هبوة، وعميقة.

كانت ساحة المولد الغامضة بالليل ممتدة بداخلها، كلها، بأنوارها
المتراقصة: حبال المصابيح الكهربائية الممدودة والمتدلّية، وكلوبات الغاز
اللبنية الضوء، ومشاعل النار المدخنة على عربات الترمس والبرتقال
الصيفي.

رأيت الرجل الغريب يقف أمام المرأة، جامداً، يُحدق فيها بثبات،
لا يتحرك.

كان نحيلاً وطويلاً، قدماء الغليظتان تبدوان مفلطحتين ومتربتين
في الصندل المعمول من مطاط العَجَل وحبل الليف. وكان عليه
جلباب صوفي قديم رث نسيجه وخفّ وتقطع، وظهر تحت تمزقاته
جسمه الداكن وعظامه العجفاء.

ورأيت حول رقبته الضاوية - تفاحة آدم كانت كبيرة جاحظة -

صلياً خشياً ضخماً بأطرافه المورقة، معلقاً بحلقة من الجلد الأسود الذي بدا لي في أنوار الليل المهترئة، غير نظيف تماماً.

كان معتمراً بكوفية طويلة كالحلة السوداء تلف رأسه وتنزل على كتفيه.

وكانت عيناه عميقتين ونارهما متقدة في الحفرتين الغائرتين.

من الرجل، عم لاوندي؟ لا يمكن.. كنت طفلاً عندما عرفته لأول مرة، في أخميم. كان يسرق لي الحلاوة الشَّعر واكلها منه، خفية منذ كم سنة؟ ثلاثين، خمس وثلاثين سنة؟ أو أكثر. لم تتغير فيه نامة ولا ملمح. هو نفسه دون أدنى شك، ودون أدنى تحوّل.

استبدت بي الغرابة فخطوت إليه دون تردّد، ودخلت حيز المرأة الكبيرة.

كانت المرأة خاوية تماماً، رائقة وساطعة، ليس فيها أدنى رقرقة.

بينما المولد يموج ويغصّ حواليتها.

لا الرجل، ولا أنا، ولا شيء مطلقاً داخل الإطار القديم المشغول بالورود ووجوه الملائكة الناصلة الذهب.

طلبت روجي، يا نور عيني. وروحي لك

رأيت، مرة واحدة.

نحياً طويلاً. دقيق القامة يتسم أهون ابتسامة. وجهه شاحب وحليق وأنيق تحت الطربوش المكوي الحاد الأطراف، مائلاً على جبينه أقل ميل، بدوق وغندرة الثلاثينات المرهفة الحس.

وكان جلبابه سابغاً ومهفهفاً عليه، من الحرير السمعي السكروته،

وعليه بالطوبى بلدي جبردين أسود، محكم التفصيل، غالي القماش،
ينزل على الجزمة الصفراء، برقبة، أزرارها الدقيقة المتسالية مدورة
ولامعة وصفرتها أدكن قليلاً من جلد الجزمة.

كنت أقف وراءه مباشرة. أراه هو، ولا أراه، في المرآة.
ليس في المرآة إلاه.

ثم رأيتها. هل هي التي في داخل المرآة؟ أم هي أمامي،
تواجهني، خارج المرآة؟

ابتسامتها لي أنا مغوية، وعيناها في أنوار المولد صفراوان خضراوان
متقلبتان بشهوية. كانت أمامي، فستانها الحرير السمعي، تحت الملاية
السوداء الكريشة، ينساب على جسمٍ بض، وتهداها يرفعان القماش
وتبدو الخلمتان متصبتين وراء النسيج المنسدل بنعومة.

كان شعرها ظاهراً تحت طرف الملاية، ملموماً بعصاية حمراء تقمط
جبينها الناصع المدور، وكان حذاؤها عالي الكعب مدبب البوز صفرته
داكنة وسير الحذاء يلفّ ظاهر قدميها ويحبكه يضغط على اللحم
قليلاً.

كانا يتقدمان إليّ، بخطوٍ سريع مهاجم. وكانا متطابقين في كل
شيء. جسم واحد، ثنائياً مزدوجاً دقيق القسمة. ولم يكن هناك حولي
حركة ولا همسة. تماثل تام في كل شيء حتى حركة الأصابع الممتدة
المتقبضة التي تمسك بي. إلا في ضميري المذكر والمؤنث. حتى نظرة
العينين، واحدة، في حيز المرآة الذي ليس فيه شيء آخر. ثقب، فجوة،
هوة ناصعة نقيّة مجوفة في قلب ساحة المولد التي تضطرب وتمور وتعج
بالناس والأشياء. فراغ صامت في قلب ضجيج البهجة والاحتفال.

وكأنني - أنا - على التخوم . لم أعد منظوراً، لا هنا، ولا هناك .

قلت: ليس هذا انعكاساً لأحدهما الآخر .

قلت: كلُّ منهما قائم لا يريم . وكلُّ منهما مخايلةٌ، ختل .

الشهيد الروماني كان قد ضرب الحية العظيمة على شطِّ النهر،
تحت سور المدينة، وماء النهر كان يتدفق دماً . الحية العملاقة تنتظرنى
وتواجهني بعينٍ لا تطرف . أمواج الدم شربتها الأرض، سدى،
هدراً، مضيعةً .

قلت: لماذا أقول قولي للمياه المنصبة؟ شفتا المياه لا تحفظان
القول .

قلت: كنت أريد المعرفة . كنت أريد الحب . كنت أريد العدل .
سمعته، من داخل عمق المرأة، دون صوت: هذا أوان المحاق .
ومطلق الغيبة .

قلت: أشواقُ مرايا الوجود .

قال: وجدانك إياها فقدانٌ مستديم . الوجود نهاية . أما هنا،
والآن، فما من نهاية، ولا من بداية .

استدارت إلى فجأة . وانحدرت الملاية عن كتفيها قليلاً . كان
فستانها معلقاً بحمالتين سوداوين، تلمعان، وكانت سمراء، مبتلة
اللحم، رقراقة، تمدُّ لي أصابعها المكتنزة الواضحة المفاصل .

أمامي، أيقونةٌ طويلة مشعة، ألوانها فضية ذهبية، على خشبٍ
شفاف فيه شقوق لا تُرى . النور يصعد إليها من شموع غير منظورة،
يغذوها الزيت المتقطر من عظام صدري . وكانت تغدق عليّ معرفة لا

حدُّ لها، وتحجرتني عنها في وقت معاً. وكنت أريدها الشهوة والمعرفة
معاً. وأدركت مدى تعثري وقلة حيلتي.

قلت: طوّحني الحلم، وتخبّطت خلف الأخيصة، يداي خاويتان
وروحي قاحلة وسخريتي ملء آذاني.

لكنها كانت تعطيني، بحساب أو بغير حساب سواء. أعطيتها
مجدي وتسيحي.

ورأيت أنها مجبوسة داخل المرأة. محاصرة. الإطار المذهب القديم
يحددها، وحدها، وهي بؤرته.

قلت: أمي تتحدّى الزوال؟ أمي تقف في الدوام؟

قلت: طلبت مني روحي يا نور عيني، وروحي لك.

كانت الحدود قاطعة. ما في داخلها مُركّز ساطع النور يؤكد
تعيّنها، ويثبته.

وفي هذا الداخل كان تغيرها هو نفسه وحدانيتها.

كانت تناديني بكلمات المحبة والحنو، وبذات الشهوة معاً، داعرة
وواقعة حياً، تدعوني، بغواية لا أقاومها، إلى تخطي عتبة قاتل
عبورها. ولم تكن المقتلة ما يُثني.

قلت: «نفسى ليست ثمينة عليّ». ولكن الخط الفاصل حاد ورفيع
مثل سن الشفرة وعميق مثل هوة لا قرار لها. ومجاهدته تبدو محالاً.
أمد إليها يدي فلا تبلغ شيئاً.

ومع تموج جسدها اللدن، وتضرج الشفتين بالدم، وعمق الكحل
على العينين النجلاوين الضاربتين، لم أجد حرارة ولا أدنى دفء.
كانت في داخل المرأة، ليس لها مادة، مع تجسدها. لم يكن هناك

معي إلا خواء هذا الداخل البريء من كل عضوية، كان ملمس
فمها المفتوح بارداً ومثيراً، أنفاسها متتابعة مخطوطة تحت شفتي، وبين
ذراعي استحالة التلامس مع أنها كانت تلتصق بجسمي المتفرض.
كأنني أواجهها لا أعانقها، كأنها شيء لا يُنال قط. هي في مكان
آخر، في موقع لا يصل إليه أحد قط. وهي مع ذلك حميمة ومتقدة
بالشهوة والمحبة معاً. لم تكن امرأة، بل كانت مطلق المرأة، تتضرع
وتتسلط، تئن وتشكو وتتطلب، خادعة وأمرة لاراد لها. طفلي
وغانيتي الشبقة بالحب.

اشتعلت فجأة، وقذفت كما يقذف المشنوق لحظة إطباق الحبل على
العنق.

أوقفني داخل المرأة وقال: ومع كل المعرفة، فما من عرفان لك
قط. لأنك بلا إيمان.

وقال: وجودك داخل مخايل. فما من وجود.

قلت: إلا الحب.. إلا الحب. وحده الحب يحمل وهم الوجود.

أما هو فقد كان يضرب بالطور ضربات خفيفة بعصاه الأبنوس
اللامعة، على وتيرة منتظمة، مع ظل ابتسامية لا تكاد ترى، وكان -
تقريباً - حانياً وعطوفاً. عيناه ثلجيتان بنظرة مسددة إلي باستمرار: ألم
تكن تريد الحب؟

قلت: وأردت المعرفة. وأردت العدل. وأردت الحرية.

قال: والصبا المقيم؟

قلت: كنت موقناً أنني سأموت قبل العشرين.

وقلت: قبل كل شيء أردت الإيمان. عرفته فهل فقدته إلى الأبد؟

قال: السؤال سؤالك. والباب موحد، بإرادتك.
فلم أجرؤ - وهل ترفعت - أن أقول: لا. الإرادة مطلقة.
ألم يقل شيخنا جلال الدين، «إن غير العاشق، وحده، يرى نفسه
في مرآة الماء.»

في حلم الماء، في ماء الحلم، صورة الوجود هي استحالة
الوجود. الباطن وحده هو تخايلة المتعين يحقق به العدم. أما العاشق
الحق فلا يرى في المرآة إلا الفناء.

قلت: لا وجود عند ظهور هذه السطوة.
كان جرس الكنيسة يصلصل مليئاً وقوي الرنين، ويقرع تجويف
السماء النحاسي بدقات تلقى كتلاً صماء تغوص في روجي وتخبط
القاع.

أحسست أن أطراف أصابعي تتوتر وترتعش وكأنما ينطلق منها شرر
متعاقب لا أراه، يدي ممدودة حتى آخرها، هي وحدها ضارعة،
مستقلة عني، تخرق حاجزاً لا يلين لا يهتز لا يفتح إلا بمقدار نفاذ أصابعي
منه. ثم سقطت الأصابع، مبتورة من جذورها. ورأيتها بهدوء، بما
يشبه اللامبالاة تنفصل عني، كأنها لم تكن تمت لي بصلة يوماً.

وأحسست المرأة تشطرنى وعرفت أنني أتلاشى، ولم أكن فزعاً بل
كنت مطمئناً وراضياً، وقلت: وليس عندي من قول.

١٩٨٩/٧/٢٤

من غير إجابة

«لَبَسُ غَيْرِ مَحْلُولٍ»

هذه حكاية خضبتُها بدمٍ قديمٍ، هبت عليها أنفاس النار اللافحة مع سكراتِ عشقي بائد.

كان موعد درس الرسم يزعجني، الثالثة بعد الظهر تماماً كل يومي اثنين وخميس. كان معنى ذلك أن أخلص بالكاد من مكتب الترجمة وأسلم على الخواجة ساسون، وأقطع شارع سعد زغلول صاعداً حتى محل بنيامين فأخطف سندوتشين: فول، وفلافل، آكل في الطريق الجانبي الذي تقع على قمته سينا ماجستيك ويحفه السور الطويل الذي لم أعرف قط ما وراءه، وأنفذ من شارع السلطان حسين، فالنبي دانيال، فشارع فؤاد، وقبل حلواني بورد وأعبر إلى الرصيف المقابل، وأدخل إلى حارة واسعة وقصيرة، فيها البيت العريض المنخفض.

السلام خشبية تتأرجح وتشرّ تحت قدمي، وعليها دائماً تراب خفيف، واطئة مريجة تدور في الحوش الكبير المدكوك بالحجر الأبيض الذي نعمته السنوات، ويفطيه سقف عال زجاجي مثلث الأضلاع وقد بهت ألوان الألواح الزجاجية وتحولت الصفرة إلى صُهبه فاتحة، والزرقة إلى بنفسجيٍ كامد، والضوء يتقطر منها نزرأ في حمرة مكتومة.

قلت: ألوان الصبا، ما أشد ققامتها، وعنقوان نذيرها.

كنا أربعة في الدرس عند المايسترو أنطونيوني. أنا، وأحمد عزمي مدرس الإنجليزي في المدرسة المرقسية الذي مات في شبابه قبل أن تزدهر موهبته الحوشية، والأخوان مرادلي: إحسان الذي كان حتى في تلك الأيام مدوراً سميناً يتسائل شعره على جبينه وضحوكاً مقبلاً على النساء وطيب الحياة، وإلهام الذي كان موظفاً بمخازن وزارة المعارف العمومية في محرم بك، نحيلاً وأميل إلى السمرة والتأمل والانطواء.

وكنا نأخذ الدرس في الصالة الكبيرة التي حولها المايسترو إلى مرسوم ومدرسة، واسعة ويتدفق النور من شبايكها الزجاجية العالية المطلّة على المنور، وعلى الجانب الآخر أبواب الغرف الخشبية الضخمة المصاريع، مغلقة على أسرارها.

وصلت متأخراً يومها، فتح لي أحمد عزمي وأشار إليّ خفية ألا أفتح فمي. كان المايسترو يقف على جنب، ويده عصا طويلة رفيعة يشير بها إلى الموديل العارية.

كانت الموديل تنظر إلى نقطة غير محدّدة، وهي واقفة على كرسي حمام منخفض مدور مدهون بالأبيض، أمام الشباك العريض. النهار الخام المصنّف يضيء بوضوحٍ وسطوحٍ جانبيها الأيسر، وأنا داخل، كلّه، أمّا جانبها الآخر فيقع في نوعٍ من الظل المنور المشع، من انعكاس ضوء الظهر على الحائط الأبيض والأبواب البنية الخشب.

نظر إليّ المايسترو نظرة صارمة، وكأنها متواطئة في وقت معاً، وأنا أنسلّ إلى مقعدي المعتاد جنب التليفون الأسود في ركن الاستوديو،

وأفتح كرّاسة الرسم العريضة، وأخرج قلم الفحم، أحاول أن أشرع في الدرس.

كانت الصالة حارة.

والمايسترو يمضي في شرحه، بالفرنسية الإيطالية اللكنة والعربية المكسورة معاً، لعبة النور على تشريح الجسم الأنثوي، وهو يدفع بالعصا ناحية الموديل، من غير أن ينظر إليها، دفعاتٍ قصيرةٍ عصبية كأنه يوشك أن ينجز هذا الجسم أو يخترقه.

أشار إلى ظلال الثديين الصغيرين، طريين ومتناسكين في وقتٍ معاً، وكانت الدائرة التي تحيط بالحلمة واسعة وداكنة وفيها هذا التحبيب الدقيق الذي يبدو للعين، في النور القوي، خشناً وسط ملامسة جلد الثديين، لونها أفتح قليلاً من السمرة القمحية للجسم كله. كانت سمرتها غضة ناعمة ومطفأة، وكأنها مترية قليلاً.

- بص كويس *Les seins, ronds, consistants*، موش جامد، زي الجواقة، موش نازل، موش *mous* زي . . زي واخذ عجينة . . كمان بَص . . . *La qualité des ombres*، دَا بَص كويس فيه . . شوف ال *correspondance* بينه وبين ال *pelvis* شوف ال *volume* بتاعو. عايزين ال *sculpture* بتاعو مش بس الألوان . .

وكان كلامه عن النسب، وعظام الحوض غير واضح لي تماماً، وهو يطعن بعصاه منطقة الظلال الغامضة تحت البطن، كان ردفاها المكتئزان يبدوان كأنهما أثقل مما تحمل الساقان الطويلتان. وكانت نحيلة ولكن بهذا التحول الزائف لأن الجسم ملفوف وكامل التدوير. قلت: لا تزيد عن ثمانية عشرة، أو عشرين، على الأكثر. أنشويتها

واضحة. قلت: هذه ليست بنتاً بل امرأة حقاً، تشهد عليها تقاطيع
الجسم الناضجة، ونظرة العينين الخيرة، الغائبة الاهتمام مع ذلك.

ما الذي يحجيني؟

صفاء الرؤية يعوقها ضربان الدم في عروقي.

كانت مع كل نسوتها تلطف عن أن أنقل لها خيالاً، بالقلم
الفحم، على ورق الرسم الأبيض.
قلت: هذا الجسم قادرٌ على حنان كبير، وعلى هوس العشق،
وتلهبه.

وكان هذا صحيحاً.

كنت، دون أن أعرف، قد أبحث له مجالي روحي، كلها.

مصادر الحب صامتة.

كان بطنها هضياً، وفيه من على الجنب ندبة عملية قيصرية
واضحة لكنها بشكلٍ ما تزيد استدارته حيكاً ووثاقاً، وفيه الخطوط
البيضاء الباهتة التي تأتي بعد الحمل، مع انخفاض البطن عند
الولادة، والدكنة الكامدة عند التقاء الفخذين المسحوبتين الملفوفتين،
وتماسهما، وتبدو شعرتها مخلوقة جيداً أو متوفة بالحلاوة، بعناية، لونها
أكثر بياضاً من لون البطن، وربوة الفرج مليئة ومرتفعة.

كان جو الاستوديو في ذلك الظهر الأول حمياً وبيتياً جداً. فُتح
باب غرفة لمحتها واسعة ومزدحمة بالسريير والمرايا والشلّت، وخرجت
امرأة أنطونيوني، فارعة الطول وجسيمة وملفوفة في روب أسود عليه
نقوش وروودٍ حمراء صينية متوحشة التطريز، ومرقت بجانبها داخلة إلى
الحمام الذي أعرف أنه طويل وحيطانه مبلّطة بالقاشاني حتى السقف

وفيه بانيو هائل له أقدام لبؤة من النحاس الأصفر المسودّ مفلطحة
وناتئة المخالب.

قلت: لا تَرَدُّ هواك، لا تنأ بجانبك عنه. ولو لم تعرفه.

قلت: ليس للهوى من سببٍ ينطق به.

قلت: حبي في دخيلتي محتج لك عليّ، ويحكم لك عليّ.

كانت وداد تعمل لي فتجان قهوة، على السرّتاية، في غرفتها.
وكانت رائحة السمك تصل إليّ من النافذة الوحيدة المواربة الخشب
التي تقع مباشرة فوق السرير بأعمدته الأربعة السوداء. كانت تعطي
لي ظهرها وهي أمام مائدة المطبخ المكسوة بورق جرائد مقصوص على
أشكال هندسية الأطراف، وعليها الحلل، ووابور الجاز، وفوقها
المطبخية الخشب ورفّ عليه الأكواب والفناجين، مرصوفة على نفس
ورق الجرائد بنفس القصاصة الهندسية بمثلثات ودوائر مفرغة.

كنت جالساً على الكنية الصُّلبة المرتبة، وأما العجوز جالسة على
الأرض، جسمها كتل مكومة وكانت لا تكاد ترى، وتحكي لي عن
تعبها في مستشفى الملك فؤاد لعلاج عينيها. أما الرضيع فقد كان نائماً
على السرير، تحت النافذة، أطرافه رفيعة وهشة.

جلست وداد على الأرض، تحت قدمي، بجانب أمها:

- يا خويا أهي عيشة وأخرتها التربة. قطيعه تقطع دي عيشة
ومنينها. يعني جالنا إيه من دي العيشة الهباب؟ طب دحنا من ساعة
ما عرفنا جوزي مقصوف الرقبة واحنا ما شفناش ساعة راحة، وأخره
المتمة تقولشي الأرض انخسفت به. ولا نعرفوله ريحة جرة. قال إيه
اللي رماك على المر قال اللي أمر منه. دا برضو لحم الواحدة عزيز

عليها. بس حنعملوا إيه؟ أهى قسمة ونصيب. يا رب توب علينا
بقي يا رب. يا خويا دي الواحدة طهقت م النيلة اللي احنا فيها. آه
يا غلبي يا مراري.

كان صوتها عميقاً ومشروخاً قليلاً.

- عاديك يا خويا، آل عين ما شافت قلب ما شال، أنا في
عرضك يا خويا، أبوس رجلك، استر عليّ. ما تسينيش. دي
الذروة حلوة.

كان في صوتها الآن، وفي نظرة عينيها المرفوعتين إليّ، قهرٌ كامل،
وطمع مفهوم، ومبرر. وكانت محتاجتي لنفسي في ذلك غير مجدية،
وأناية أيضاً. وكم ندمت بعد ذلك على أنني تركت لها الشكوى
وضراعتها لم أسمعها.

اللبؤة أنثوية الجلسة تحت قدمي، شعرها الأكرت ملموم بشريط
أزرق، وعيناها مفترستان الآن. الهولة طفليّة وأمّ الوجود، وديعة
خاضعة وكامنة الضراوة، وحشيتها محسوسة، ناعمة ومطلوبة. وكانت
ترضع الولد من الثدي طريّ غير متهدّل، تضغط عليه بيد رفيقة
ومثيرة، أعرفه لأنني رسمته بالفحم وبالزيت وبكل الألوان، داعبته
وتحسّسته ووزنته وعركته بيدي، ولعقت بلله استطعمت حلاوته.

لا. لم أكن لأختار الخالص المصفى من شعث اللحم والدم. لم
أكن لأريد الموسيقى البحتة. ما الموسيقى؟ كنت أؤثر حنان القلب،
وعنف شراسته.

كانت أمها راقدة على الأرض، وكان الصغير ينام بين أمه وبين
الجدار، وكان السرير يحملنا إلى عجات وشهوات لجّية لا شاطيء لها.

وعرامة الصبا المحرقة لا تخبو حتى في حضور المحارم والجسم سكران
بوجد غير عاقل. أمّا الرثاثة فقد كانت تتلاشى، لا توجد، لم تكن
موجودة، أصلاً، أمام جمال خاص، وحرارة مدمرة.

في هذا الدنّ كانت خر حنوها عتيقة، وجديدة عليّ، معاً. لاذعة
الطعم وسليسة.

وكان حنوها معي - وطمعتها - لا مقياس لها.

كنت أطلب رقم التليفون، ويأتي الرنين المتصل، في الليل، من
غير إجابة. وكان اليأس يحيط بليلي ولكني لا أني أطلب الرقم،
بإصرار، باستمرار. فجأة ردت عليّ امرأة، كانت شجيّة الصوت وفيه
بحة وخشونة أنثوية، نافذة الصبر، وسألتي، بالفرنسية: من أنا؟
ماذا أريد؟ لم أعرف أن أرد. لم أعرف. فسألت: ما الرقم الذي
تطلب؟ من أنت؟ نسيت الرقم. حاولت أن أتذكر. لم أستطع أن
أعرف. لم أرد. سمعتها تقول بالفرنسية: يا إلهي. يا إلهي. ثم عاد
الرنين المتصل. كأن لم يكن هناك قط رد. ولن يكون.

قلت: أعط يدك من يثبك في سقوطك، وينجيك من هلكك،
ويخلصك من أوهامك.

قلت: من؟ يدي ممدودة.

قلت: هتك الأستار. بجانب الأسرار.

قلت: الهوى هلك وهم وسقوط؟

لم أعرف إلا يوم الإثنين التالي.

قال لي إحسان مرادلي إن الإسعاف نقلتها يوم الجمعة إلى
المستشفى المري، على النفس الأخير. قال إن وابور الغاز هب فيها،

وأمسكت بها النار، وإن أمها لم تصرخ إلا بعد فوات أوان النجدة.
قال هل تعرف أن لها ابناً صغيراً لا أحد يعرف ماذا يفعلون به؟ وأن
البوليس يبحث عن زوجها، في قضية آداب، وأنه هارب من شهور؟
سألته بلهفة، وشك كيف عرف، قال: هكذا، بالصدفة، كنت أمر
عليها في غرفتها في رأس التين. فلم أعن بتحقيق حكايته.
كانت الغرفة الضيقة مشتعلةً بجسمها. كنت أعرف أنها هي التي
أقدمت على النار.

كيف أمكن أنها طيبت النار لجسمها؟
كيف احتملت أن تخلع عنها، نهائياً، كل أوصافها، وكل لبس
فيها؟

فوران السر من حرقه قهر أم من ضيقة مازق؟
قلت: أي ثقل من الجريمة كان في طاقتها أن تحمله، عاقبت
نفسها عليه. العقاب الأخير. كيف أقدمت عليه؟ هذه القسوة التي لا
تطاق، الحرق والتشويه، بلا رجعة. أخذ الانتقام الكامل من
الذات؟ تعذيب طقسوسي لا ترد فيه، تصميم لا أفهم مدى
صراحته، والنار ترعى لحمها.

إدانة لا تنقض ولا ترد.

لماذا؟ لماذا؟

السؤال قوته لا يُحتمل.

١٩٨٩/٧/٢٩

مخلوقات ملكة عبد الملوك

«الحلم حقيقة ممكنة»

كان طريق المعادي على النيل يبدو موحشاً، في أول المساء.
النخل السامق الرشيق مائل على الرصيف وجدائل سَعْفه تنوس
تحت جدران البيوت المغلقة. . دغلات الأشجار متكاثفة تحت سماء
عميقة الزرقاء، فيها بقية ضوء النهار، وسحاب ينزلق ببطء.
أضواء النيون تنعكس من أجزاء حانة وعيون مصابيح الطريق بيضاء
مسدودة يقع نورها الذي لا يفيد أحداً على كشك سجائر وكتب
ومجلات، به لمبة جاز.

السيارات تنساب على الإسفلت وثيرة صامتة.
كانت الأصوات غير واضحة ولكنها مقلقة تتجاوب من بعيد،
والطيور الصلبة تنتقل من شجرة إلى أخرى، محددة قاطعة الجسوم،
بلا صوت. وكانت سيقان النخل السلطاني وسيقان النساء، بيضاء،
دافئة، موحية.

أمامي النيل واسع ومنخفض وغامض.
رأيت الجزيرة في وسط المجرى العريض، عليها أعشاب وطحالب
ملحية الشكل، حولها المياه الساكنة مخضرة قليلاً. شطوط الجزيرة

المتعرجة تغرق وتطفو من بركة النيل الهادئة السطح .

تأتيني فجأة، من بعيد، طلقات المدافع، دقاتها ضخمة مجوفة الرنين تفرع القلب، تتلوها رشاشات متلاحقة من رصاص الآليات الحادة . والساء المغطاة الآن بغيام رمادي، تقطعها سطوحات مُشعبة حمراء وخضراء من قنابل الاستكشاف الضوئية الصامتة الاشتعال، تظل متوقدة لحظات وتنطفئ ببطء .

كان يجري على الطريق . . جلبابه الأبيض القصير يضربه هواء الجري على منتصف ساقه، وقد شهر مسدسه السميك منطفئ اللون على امتداد ذراعه، ولحيته طويلة قائمة السواد هائشة حول وجهه الأبيض السمين، مرّ أمامي مباشرة . رأيت أنه قد حُفّ شاربته . أثرُ زرقة الحلاقة الوثيقة حول فمه .

سقط بوجهه على بُعد خطوات، دون أدنى حركة أو صرخة، على حشائش الرصيف التي كانت قد توحشت وطالت تحت شجرة التين البنغالي الجسيمة، الهائلة .

كانت سيارة تاكسي واقفة وخالية تحت مظلة واسعة منخفضة مصنوعة من القش البني الباهت، والمحرك يدور ويترّ بانتظام .

في عتمة أول المساء رأيت هذه المخلوقات الشمعية، مائلة على جنبها، ثابتة الجوارح، تطير تحت السحاب الذي بدأ يشفّ الآن من نور القمر المقطوع، تحملها ريح خفيفة . ومن بينها فينوس . حية، صغيرة القد، يبيض جسدها، شمعية التقاطيع وجهها أعرفه، وأحبّه، كم لثمته . كم سقطت عليه دموعي، وقطرات منّي . كانت بالضبط تشبه التمثال لكنها لدنة القوام . ضوء كاوٍ، كأنه برقّ الفلاش

من كاميرا ضخمة غير مرئية، وقع عليها وانثال على جانب وجهها، وظل ساطعاً. أحرق الضوء جانباً من شعرها المعقوص الملفوف بحناية، وبدأ وجهها يذوب، وقطرات الشمع الثقيلة تسقط بينما الريح ما زالت ترتفع بها بهدوء، وفي عينيها نظرة غائبة.

رائحة من الوجد، وحرقة.

طاحت تلك الإشارات. أفلتت من يدي.

بليلة لما كان قد سكن من طائر الأشواق.

هاجت الآن روعي. ما من مثاب أبداً لهذا القلق. لا تخبو حدمة

نار التزوع، بلا منال.

والحلم صامت. مكنون.

انقض عليّ. طائر داكن الخضرة كبير الجناحين يتزل إلي من عل،

ريشه كريش بيغاء هائل، أعرف أنه عاقل وأنه ناطق وأنه مُدركي.

ولكن الخرس مقامه. ومقامي.

ثم لبد أمامي معلقاً من مخالبه القوية المستننة ومشبوحاً تحت

الشجرة الضخمة، مدلى بجانب الجذور الخشبية النازلة من بين

حرشة الأغصان الأثيثة، صلبة تتلوى حول بعضها بعضاً لم تصل

للأرض بعد، وقوية متينة العضل وصلت إلى التربة الأم ونفذت من

الجثة البيضاء الراقدة على وجهها منذ زمان بعيد أعرف أنها دافئة ما

تزال.

كان الطير الكبير قائماً في نور القمر الذي تبند الآن وراء سحاب

أبيض مقطوع ينزع لونه إلى الرمادي الفاتح. وكان مقلوباً ورأسه

ساقط إلى تحت كخفاش ضخم له منقار طويل معقوف الحافة، حاد

الطرف.

وكانت رثاه متدلّيتين، من صدره المفتوح، بجانب جسمه الساكن الملموم الريش، تنبضان، لونها داكن وغشاؤهما لامع وأملس، والقلب يضخ بينها، مكشوفاً في الهواء، صغيراً بشكل لافت للنظر وغريب.

كان مستكناً ومتربّصاً في وسط خضرة الأغصان المترابطة المنبججة المفاصل، والأوراق الملساء الجرداء، وكريّات الثمار الصغيرة الحمراء القرمزية المتورّمة بعصارتها.

ورأيت أن منقاره يضرب بانتظام وإصرار في يد مَلَكَة عبد الملاك، كَفَّها مفتوح ومنبسط كأنه يأكل من يدها، وهي تنظر إليه، لا تَضَنُّ بشيء.

كنت أعرف مَلَكَة عبد الملاك، من المطبعة.

كانت تحفظ أقراص الرصاص وهي ما زالت ساخنة ذائبة تقريباً، حتى تجمد، تضعها في خزانة مفتوحة لها أرفق متقاطعة. والحروف البارزة، المعكوسة على سبائك الرصاص فيها السجل الكامل لكل شيء، كأنها اللوح المحفوظ. وكانت مَلَكَة عبد الملاك، دائماً، تحيط بها، حيثما كانت، بقايا رصاص المطبعة وشظائيه الرفيعة المشطوفة بيضاء البطن، وحوّلها شمع الفوتوتيب الملفوف في اسطوانات كبيرة مسنودة إلى حيطان المطبعة وإلى خزانة الأرفق الخشبية وإلى جوانب ماكينات اللينوتيب العملاقة، المتحرّكة التروس والصفوف.

كانت بشرتها زيتية ناعمة، وشعرها، في وسط تشابك المطبعة وازدحامها، طويل وقويّ حالك السواد. وعندما تتكلم تحرك رأسها فيهترّ شعرها كأنما تهبّ به أنفاس لافحة، وينزل بكتله الناعمة على

كتفيتها ثم يرتفع، له حفيف مسموع.

وكنت أذهب إليها كلما اضطرت إلى البحث عن إعلانات قديمة، أو بطاقات معلومات بائدة، أو تفاصيل الاحتفالات بمناسبة منسية.

كانت مَلَكَة عبد الملاك قمحية اللون وبيضة، مليئة كالموج، وجهها المدور كامل الاستدارة ودائم الثقلب، له أشكال متغيرة في نور المطبعة الشحيح أو المتوهج.

ومع جسدها الطيع، المنيع، كان حنوها علي راسخاً.

وكنت أرى صدرها قادراً وشاغماً، والثدين في السوتيان المحبوك، يعطيان حساً بالنضج الراضي المرتاح.

قالت لي: أنت المتقلب الذي تطير به الأهواء والأشياء. أما أنا - كما ترى - فإني ثابتة. سوف تجدني دائماً هنا.

وسوف تقول لي: أنا، في أي مكان، في أي وقت، لك، ملكك. فهل يمكن أن تقول لي: تعالي، ولا أجيء؟

أين ملاكي الغضوب شاهر السيف على مخلوقات الشوق؟
أحسست الريح تشتد قليلاً، وضوء القمر يغلب السحاب.

رست، أمامي مباشرة على الكورنيش، آخر مركب طالعة، إما أن ألحق بها أو أن يضيع كل شيء.

نزلت بسرعة على سلام مزدوجة متقابلة، صاعدة وهابطة، وشيش الكهرباء مسموع وقوتها محسوسة، وكان الناس كثيرين حولي والأنوار من سقف النفق متتابعة ومحددة ومجسمة، وكان النفق يدخل بي ويفورس في قلب صخر الجبل، منيراً جداً ومدوراً ولا مع الجدران،

ثم وجدت أن السلام المتحرّكة قد خرجت بي إلى النيل، والنفق ما زال يفوص، يشقّ الموج الذي أحسسته يرتطم بالجدران الناصعة المبلّطة، ارتطاماً هيناً.

لكن المركب ما زال بعيداً، ومهما جهدت في الجري صاعداً ونازلاً على الدرجات الحديدية المضلّعة أجد نفسي ما زلت أراوح الخطو في موقعي.

مشتاقٌ على الدوام، من غير أشواق.

حبي طلب دائم، ومخافةً انقطاع. بلا هوادة.

والقلب جزيرة محاصرة.

فرغت من الحنين إلى الصبوات. فرغت من التبرم شوقاً، بارحتُ

أشجان الصباية والحنان. بارحتُها.

دورة كاملة. أخرج من درج النفق المتحرّك لأجد نفسي ما زلت

تحت شجرة التين البنغالي، في تناول منقار الطائر الأخضر الضخم.

وقد اختفت مَلَكَة عبد الملاك.

بادرتُ بأن أسلمت لطائرٍ المستحيل نفسي، دون مطالبة، دون

لجج. وليس هذا كسبي ولا دأبي.

مدّ إليّ منقاره. وأخذني. أطيّر معه. في باطني، في باطنه.

معراجي عبّر عصف السهوات العلى.

حتى غشي بصري الضوء الباهر الذي لا مثيل له. كانت قناديل

الزيت السهاوي مشعة كوجوه الملائكة، ولا حصر لها، تملأ السماء

والأرض وما بينهما، ساطعة من الأزل.

هكذا يأوي العاشق إلى ما بين قدمي العرش الوهاج.

احترق قلبي بالنور، وكان جانبه الأيمن يسقط عني، مصهوراً.

النور ظلمةٌ تكتنف الروح، كاملة، بلا رحمة.
وليس هناك إلا مخلوقات الأشواق، متجسمة، تطير حوالي، تدوب
وتتجدد بلا انقطاع، تملأ الداخل والخارج، وحدها.

١٩٨٩/٨/٤

بيت قديم

«الزمان خيالات مقطوعة»

ما زلت أراني أسير في الصباح الباكر الساكن، تحت سماء لؤلؤية،
إلى البيت القديم.

أسير إليه، وأنا أحمل في داخلي شوقاً مُمضاً وعميقاً، وحساً بانتفاء لا
ينفصم إلى هذا البيت، ولوعة لفقدانه.

أعرف أنني لن أسير إليه أبداً، لن أدخله مرة أخرى، أبداً.
خطواتي - في هدوء الحوش، بعد أن أغلق خلفي باب الشارع
الكبير، تحت الجميزة العتيقة - لن تحدث.

أخطوها، مع ذلك، على الدوام، من غير وصول.
أعبر عتبة الباب الرخامية، حافتها الناعمة غاصت في الأرض،
عليها نقوش كتابات هيروغليفية كادت تمحي، ماثلة مع ذلك
تستجلب البركة تستصرخ الذكر.

أعرف أنه على هذه العتبة الخفية مرّ من قبلي بيبي مارتان ومحمد
ناجي، راغب عياد وكامل التلمساني، جورج حنين ورمسيس يونان،
موسكاتيلي وسند بسطا، كاترين سُرْسُق وبولا العلايلي، وغيرهم ممن
لا اسم لهم، هؤلاء الذين عذبتهم أرواحهم وطوّحت بجسومهم
التزوات والمعاشق، ومفازع مجرد الوجود، وأنه هنا حُسمت مصائر أو

عُلِّقت إلى الأبد دون قرار، رُسمت أقدار وتجمّدت شطحات شِعْر
هذا البلد.

لكن الحوش كان دائماً خالياً، من غير وحشة، مكنوناً داخل
الحيطان السميقة السامقة، بأحجارها التي تضرب إلى الرمادي
الفاتح، لون قديم، نظيف، تظلله أشجار كافور وجزورينا عفية
وارفة، تنفي عنه فجأة كل ضجة القاهرة، وتضفي عليه سكوناً،
وسلاماً لم أجده في أي مكان آخر، ربما لأنه كان يُعدني لمحبة، ورضي،
لم أجدهما في أي مكان آخر.

أحجار السلام العالية الدرجات، محصورة بين حائطين في بشر
السلم الضيقة، تبشرني، كأني أسمع من ورائها طنين حياة مليئة
بالقوة والوعود.

وعندما يفتح الباب المحكم الوثاق، أخيراً، تهبّ عليّ أنفاس
البيت الهادي، حميمةً وضاويةً.

ما زال أعزّ واقعي .

أعود إليه - وإليها - بلا انقطاع . وكأنها لم تبارحه قط، ولم
أبارحها .

كل الدراما، كل الحب، كل النشوات، كل سكرات الجسد وكل
أمجاد الروح، ما زالت، كلها فعالة .

ناداني قلبي إليك، لبيته لما ناداني . . .

وهل تصورت لحظة أنه قد يمرّ يوم من غير اهتزاز الحنين،

والحنان؟

أي يوم؟

نداء البيت القديم، نداء القلب القديم.

في القاعة الوسطانية الفسيحة، حجر حيطانها ما زال بياض لحمه
المبري، دون طلاء، ودون ملاط، أرى لوحات السجاجيد المعلقة
على الحائط، منسوجة بالخط الفارسي والكوفي، تنطق بأشعار الحب
والآيات، تهزها نسيمات غير محسوسة فتنوس برفق على جسم
الحيطان. الفوانيس العربي النحاس يتقطر منها ضوء المصابيح
الكهربائية الصغيرة بيضاء الشموع عبر ألواح الزجاج الأصفر
السداسية الشكل. يسيل هذا الضوء بمياهه الساجية ما زالت حتى
الآن دافئة مثيرة تجعلني أنتصب فجأة، أنزل معها إلى السجاجيد
العميقة الوبرة المفروشة على بلاطات الرخام، طالما صنعنا الحب
فيها، وتقلبنا في قبضة جنونه وعربدة سكراته، بينما نافذة المشربية
العريضة تعطينا جمال العالم، ونوره، وتحجب ضراوته.

قلت: لا شيء، لا الزمن، لا النسيان، لا الجسم الذي يناله
الوهن بقادر على أن يأخذ ذلك الذي حدث. إنه باق، أبداً.
قالت: يا ليت هذا مجرد تقرير رومانسي. الزمن يحو كل شيء،
كيف نصون حبنا من سطوة الزمن.

قلت: أبداً لن يمضي. ليس فقط لأنه موضع إعزازٍ خاص، بل
لأنه يقوم في الروح، باستمرار، من جديد.
قالت: كم من أشياء تحدث، ثم تؤخذ في قبضة الانتزاع، تذهب
كأنها لم تحدث قط. فلماذا يستعصي ذلك وحده على المضي، والغيبه.
قلت: لأنه - مهما تقطعت أمشاجه - يجيء دائماً من جديد. ويجيء
دائماً من جديد.

فتحت الباب بمفاتيحها، ودخلت. أحسست البيت مستوحشاً،

وكانت ظلمته فادحة. قلت: «لا بأس. سوف تعود بعد قليل». كنت في المدخل الذي أعرف أنه يفتح على القاعة الوسطانية، ويُفضي من اليسار إلى غرفة النوم. الأنوار فجأة لا تضيء. حسّ الوحشة يعضّ قلبي، موجعاً، لا يبرأ. أبحث عن أضرار النور، لا أجدها، لا أجد شيئاً. كل شيء ينكرني. أسير خطواتي، لا أرى أمامي، فراعاي ممدودتان، ومع أن الظلمة مطبقة أغمض عيني، كأنني بإرادتي أنفي الظلمة. أين أضرار النور؟ هل هي فاسدة، نالها العطب، ثار عطنة تحللت وسقطت؟ أين هي؟

أحسّ نفسي أشهق، وقعت يدي أخيراً على زر النور الذي يشبه اسطوانة صغيرة جداً من النوع القديم الذي تضغطه إلى الداخل. النور في الفوانيس الكبيرة يشتعل، على غير انتظار، يعطي بصيصاً ضئيلاً مصفراً، يهتز، وينخفت ثم ينطفئ نهائياً بصوتٍ كان فيه صدمة خبطة واحدة أخيرة.

أجد الهواء يندفع إليّ، من أين؟ من النافذة، من الباب، من السقف؟ لا أعرف. الجاكتة تهتز، تتطوح حولي، وترتفع تحت هبوب الهواء المتضارب التيارات، كأنما بفعل أيدي غير ملموسة. هنا قوى حية، وغاضبة، قد دخلت لها الساحة، حضورها لا يرد، وعملها لا يُغض، ولفح أنفاسها فيه نية غير معروفة.

أرى في الظلمة المتقلبة حولي شيئاً أبيض، غريباً، أحسّه أثقل قليلاً من الضباب وأخفّ قواماً من سحابه، بارد الملمس، ينحني عليّ، ويلفني.

أنادي بكل طاقتي. كأنما ندائي ترتج له السماء والأرض.

لا يند عني صوت .

شفتاك . شفتاك في الزمن الآخر، تبدآن باردتين رطبتين، ملمسهما
مُنْعَش وطري . ثم ينالهما - معي - هوس العشق . فيها، تحت شفتي،
كلُّ حياتها الخاصة، كل حياتها المستقلة، كل التزوي والتقلب، كل
الحب، كل الهَوَج والتلمس، كل التلاصق رقيقاً وملهوفاً ريباناً
وجوَّاساً، وإدعاً ومعايشاً، شرساً وراضياً وناعماً، مستفزاً داعياً
ومستسلماً .

لماذا يا حبيبي لم أعرف هذه الحياة وتلك الحرارة في شفتيك، عند
حلول الزمن الأخير؟

بينما أنت في حضني قد اختزل الكونُ فيك، والزمان .
رسالة شوقي في زجاجةٍ مَخْتومة مرمي بها في اليم، هل ترتفع بها
الأمواج وتنخفض بلا انتهاء، غير مفضوضة، لا تعود، أبداً، برداً؟
وكالمعتاد تظلُّ الأشواق صُموتاً . من جانب أو من آخر؟
كلُّ الكلام أبداً بدون كلمات .

جسم البيت القديم جسم الحب القديم يحيط بي من كل جانب،
وعيون الحب النجلاء تهاجمني وتطعنني، لا تطرف، لا تتوقف .
كان رخام جسدك الخمري الحار، في سمرة الغروب، معجوناً
بالحب والألم الذي لا يريم . جماله قهري شامخ، وما أطوعه بين
ذراعي، ما أنعم لدونته .

قلت لي: وقائع الحياة ليست في شعرها . الشعر في النهاية لا يقين
فيه، ولا اطمئنان له .

بصوتك المدرَّب المتقن، وثيراً سلساً ومشحوناً بطاقة جنسية سيالة .

قلتُ لك: هو كل اليقين. ما دامت الحياة - كل الحياة - سؤالاً
ليس له من مجيب.

وأنا على مشارف الخافة، في صباح النهاية الذي لا يحول نوره
الغريب، ما زلت أقول: لماذا سار كل شيء على هذا النحو؟ لماذا؟
ما زلت أريدك. وحدك أريدك. في الشعر ليس في ركام الوقائع.
كأن الشعر هو الواقع الوحيد عندي. فهل استثنائي بك فيه، أناية،
ولجج الطفولة؟ أم هو بذلٌ نهائي لا يمكن أن يُنقَص ولا أن يُنقَص.
ما زال الحب يفيض من قلبي، كالنزيف. أَيْظَلَّ يسقط على تراب
هذه العتبة المدفونة في الأرض؟ أين زهرة الدم الحمراء وحشية الحمرة
المتوقدة بالشوق.

كانت القبة الضخمة أماناً، ماثلةً عبر المشربية، اسودت بفعل
الزمن، تدور بها كتابات بارزة من الحجر لا نعرف كيف نقرأها،
وبيننا وبينها سطوح بيوت القاهرة القديمة متراكبة متهايلة، تقطعها
فتحات المناور المسقوفة بزجاج مترب، رُكِنَتْ فيها عمدان خشب بالية
وصفائح صدئة وبقايا دراجات وصناديق وكراتين وأقفاص وقفف
منبعدة بالكرايب، كل مهملات الحياة جففتها الشمس وصوحتها
ونظفتها من كل شعث لحمها وسوراته، أعشاش الحمام الخشبية يصدر
عنها هذا الهديل العميق، حزنه رتيب عمل، مستمراً وعنيداً لا يسلم
بنهاية أي شيء.

كان هذا يقيني.

قلتُ: من بين المفازع الكثيرة التي يغصُّ بها العمر المضطرب -
على الرغم مما يبدو على سطحه من رتابة وتمكن - يأخذني رعبٌ أنني
لن ألتقي بك مرة أخرى، أبداً.

قالت: حسب الشائع المشهور نحن لا نلتقي مرتين أبداً. العودة حلم مستحيل بطبيعته. كل لقاء نسيج وحده، له طعمه الخاص، حلواً أو مرّاً، وله مقوماته وحده.

قلت: لا، هذا الرعب يقول لي: «لا، ليس هذا. لن تلتقي بها أبداً، بالفعل. أبداً بعد». وعندئذ يفقدني الهلع كل صواب. وأريد أن أصرخ بأعلى صوتي: لا. لا. لأه.

قالت: اسم الله عليك من الرعب والهلع. إذا أردت أن تصرخ اصرخ يا حبيبي، لكن ليس من الرعب والهلع. فضحكت من نفسي، على نفسي، كالمعتاد.

قلت: ومن المفازع القديمة الأخرى أنك لم تعودي تعرفيني، لم تعرفيني قط. ولا يهيك هذا على أي حال.

قالت: وهم الثبيت. وهم العودة الدائمة. لا بد أن تكرر الدائرة.

قلت: ومن ثم أعود إلى كلمة قديمة لك - هل قلت لك إنني الآن أكنزها وأحرزها، هذه الكلمات - الماسات التي لك، لأنها ومهاجة وقاطعة معاً؟ - عندما قلت لي: «إنني أحبك. سأظل دائماً أحبك». أما أنا فليست بضاعتي كلها إلا كلمات.

قالت: أنت طالما... طالما، رددت حتى حدّ الهوس أن الكلمات لا تعني شيئاً، وحدها. أنا أيضاً قلت هذا كثيراً. لكنه غير حقيقي.

قلت: أحمق أنني لم أقدم إليك إلا شعراً؟

قالت: وهل الشعر قليل؟

قلت أما أنت فقد وهبتي سطوع المجد، ورهبتته. وقلة الحب الذي لا يطاق، وسورته. ما زلت أتوجس حتى من الاقتراب

بالذكرى من نور هذا المجد، لأنني أعرف أنه لا يُطاق.

كيف احتملت في البيت القديم عبء كل تلك السعادة؟

وكيف أستمِرُ في احتمالها؟

ما جدوى الكلمات، ما جدوى الكلمات، ما جدوى الكلمات،
أريدك في حضني أريد أن أعرف حبك، أريد أن أعود إليه، أريد أن
أبدأ من جديد كما لم يبدأ قط، أريد جسداً للموسيقى لحمها المليء لا
صداها ولا ظلها البعيد.

قلتُ: سوف يأتي الصمت وشيكاً. قريباً جداً.

سوف ينقضي زمان الكلام.

كنت أهم الآن بأن أوي إلى سريرنا الفسيح، تحت لوحة النسيج
الكثيف الذي يصبح فيها الديك الأحمر الخيوط، مشتعلًا، يفتح
منقاره الكبير رافعاً رأسه بلا صوت، لا يعطي نفسه راحة. كانت قد
سبقتني. كنت أعرف أنها نضت الآن فستانها الأحمر الحريري المنقوش
بالأبيض، وأنها تخلع السوتيان البيج الصغير الذي تفيض ثدياها على
جوانبه، بشريطه المطاطي اللدن الذي يحبك ظهرها البديع المكين،
جسمها السامق اللين المطواع حُرُّ الآن، صدمة جماله عندي، في كل
مرة، جديدة تخطف أنفاسي.

رأيت فجأة أن القرد المقدس يقف على باب الغرفة المفتوح، يحجبه
ويسله.

كان في جسمه المجدد لمعان الجرانيت الأسود، جلده الداكن
متغصن الطيات، وشعره الكثيف يرسل شرراً كهربياً تقشعر له
روحي.

وكانت حول عنقه، ووسطه، عقود من الفضة وحبّات الفيروز،
لها صليل على جسمه الصلب.

كان غير انساني، غير عاقل. وقريباً جداً مني أعرفه تماماً، ویراني.
مدّ يديه وأطبق على عنقي.

١٩٨٩/٨/٥

عَ المسرح

«الأقنعة غواياتُ الحقيقة»

كان ميدان الأوبرا ليلتها بهيجاً.

عناقيد المصابيح الكهربائية ناضجة بعصارة بيضاء مشعة، وسعف النخل السلطاني يهمس في نسمة المساء، وتمثال إبراهيم باشا يومض جسمه البرونزي في كبرياء.

دخلت وحدي.

السلام الرخامية والباب الحديدي عريقة تلمع. والسجاجيد الحمراء تمتص الأصوات.

وجدت أن اللوج المنخفض الذي يطلّ على خشبة المسرح مباشرة ما زال خالياً. كان مقعدي وثيراً ومغرياً بالراحة. استندت إلى سياج الشرفة المبطنة العميقة اللون، وقلت: «لماذا لم يأتوا؟ أوشك الميعاد أن يجيء» ثم كأنني نسيتهم تماماً.

كان طنين الكلام وحركة الأقدام واللغظ الهاديء يصعد إليّ من القاعة المنشورة بحبات النور المدوّرة، وكانت حمرة القطيفة المكتومة توحى ببذخ مكتوم.

الدقات الثلاث، خفتت الأضواء وسقط اللغظ والطنين رويداً.

جاء إلى مقدمة الخشبة، من أمام الستار، رجل ثقیل الخطو،
قصیر، مدموك البنیان، وفي يده ورقة. سمعت جاری يهمس بصوت
واضح: «محمد بك صبري المدير».

وقف مدير الدار أمام عمود الميكروفون بقرصه المضلع الكبير،
انتبهتُ الآن فقط إلى أنه كان هناك، منذ البداية. وقال: سيداتي
وسادتي. يؤسفني جدّ الأسف أن أنهي إليك.. أن أقول.. أعلن..
عندي نبأ أليم..

انفتحت الستارة الثقيلة المذهبة التطريز بصوتٍ حفيفٍ معدنيٍّ
مسموع.

ولكن المسرح خاوي. ديكور غرفة الاستقبال الأوروبية التقليدية من
القرن الماضي، ويبدو موحشاً، خافت الأضواء.

وعندئذ رأيتهن. كل الممثلات. يقفن صفّاً واحداً في الأمام،
وخلفهن المثلون، في الصف الثاني.

ملابس التمثيل النسائية الضخمة الوقور، قديمة الطراز، تبدو
عليهن جد قشبية لم تلبس من قبل، الفساتين الملونة، زرقاء وخضراء
وموف، لامعة وثقيلة ومنتفشة وملينة بالكشكشة والتوشية، راسخة
الشكل، والبذل الرجالي ذات الياقات المفلطحة العريضة والفتحات
الضيقة والأزرار الكثيرة.

كانوا صامتين، جادين في وقتهم، دون حركة.

نزل على القاعة كلها صمت الترقب.

خرجتُ من بينهم، طويلة، قوية الحضور. وتقدّمت إلى

الميكروفون، فكان المدير قد اختفى، مع أنه، فقط، تراجع خطوة واحدة إلى الوراء.

طاف بذهني أنها ما زالت تحتفظ بهالة من مجد مسرح العشرينات، عندما كانت معبودة الطلبة، فكوا لجام جوز الخيل من عربتها الحنطور الملاكي وجروا العربية بأذرعهم المتكاثفة ثم تسابقت حشودهم إلى حمل العربية حملاً، من بيتها في شارع فؤاد إلى المسرح في عماد الدين.

سارة برنار الشرق، النسر الصغير، هاملت، كليوباترا، شجرة الدر، ديدمونة، بلقيس، ملكة سبأ، جوليت وليلي، زبيدة البرمكية، زيزي هانم وليلي بنت الفقراء، معاً، كم من أقنعة حياة.. كم من حيوات!

وقفتُ مروّعاً، كنت قد صرختُ دون أن أعي تماماً ما أفعل، ارتفعت بعض الأنظار إليّ من تحت، اتجهت إليّ اثنان من شرطة المطافئ الذين كانوا على جانبي خشبة المسرح، كأنما ليمنعاني من الحركة. وقفتُ صامتة لحظة.

وقالت: سيداتي، سادتي.
كان صوتها يرتعش، عملاً بشحنة هزت القلوب، وكأنما انتفض شرر النار غير المرئي في جو القاعة كلها.

ثم كأنما استجمعت نفسها المشتتة بجهدٍ جهيد، وهي تقول:
- سيداتي، سادتي.. إنه ليحزني وأنا أقف بين أيديكم على هذا الهيكل المقدس، أن أنعي إليكم سقوط وردة المسرح الياضعة، نجمة الفن الساطعة، ممثلتنا الباهرة.. الزاهرة..
تكسرُ صوتها مرةً أخرى وهي تنطق اسمها.

قالت كأنها تستجمع آخر ما في وسعها من تشدد:

- سقطت من بيننا منذ قليل، استدعينا لها نطس الأطباء، ورفعنا أيدينا إلى السماء. نقلناها فوراً في كنف الأطباء. ولكن.. لكن أمر الله نفذ.. وفقدناها.. يرحمها الله.

ثم أجهشت بالبكاء الصريح الذي كان له الآن صدى غريب في القاعة الصامتة.

كانت القاعة قد شهقت، كأنما من غير وعي، عند سماع الاسم. الآن هبَّ الناس واقفين، انفجر النسيج والبكاء وصرخات نسوية قصيرة ثاقبة، أضيئت الأنوار كاملة وانفتحت كل أبواب الخروج.

نظرت عَرَضاً إلى جانب الكواليس القريب مني، الأعمدة الرومانية المتقنة الصنع معمولة من الخشب الخفيف، أقواس النصر عتيقة الحجر، من الأبلاكاش، فازات هائلة خضراء خزفية اللمعان، من الكرتون، غابات السرو والبلوط شاسعة حتى الأفق البعيد الذي تغرق فيه شمس متوهجة الحمرة على لوحة مترية، كراسي لويس الرابع عشر مكومة فوق بعضها بعضاً، الموائد الرخامية السوداء، أسوار البيوت الريفية من الشجر القصير المجذوذ تحيط بجناين مونة بالتيوليب والبنفسج، الجبانات الممتدة في ساحات الكنائس القوطية، الكوبري على الترعة الصغيرة أمام القهوة الفلاحي، المآذن السامقة وجدران الجوامع المخططة بالأصفر والبني القاتم، السلام الضخمة العريضة الدورات تصعد إلى شرفات داخلية مسورة بحديد مشغول ترمي عليه خصل الزهور، فناء محطة مصر، وتمثيل عريضة ملقاة على وجوهها مكسورة الأنف، المنصات والبراتيكا بلات الخشبية، فوانيس

الغاز مضيئة أبداً في شوارع مبلّلة بالمطر، بكرات ضخمة من حبال متورمة الفتيل وسلام نقالي شاهقة وكابلات متدلّية وسميكة منذرة بالخطر، والأنوار الصفراء تتخايل بين هذه الركامات، تنجو وتشتعل بضعفٍ من جديد في عمّرات ضيقة. يهبّ الهواء فجأة على القماش المرسوم والورق المقوى فتَهتَز الأعمدة والغابات والبنائيات بخفة ويتفرق نسيجها. صعدت إليّ رائحة تراب الكواليس.

وهي، وحدها، واقفة هناك.

كانت تحدّق إليّ، وكأنها لا تراني.

أعرف أنها ميتة، وأن حبي لا يموت.

لم يكن أحد يراها هناك. لم يسمع أحد صرختي. هل ناديتها؟

وكأنما ارتسم على شفيتها ظل ابتسامة.

وعرفت أنها تتألّم ألماً عميقاً لا براء منه. لا لنفسها، بل لي، وربما

لنا كلنا.

قلت: ما الذي يدعو إليك هذا الألم؟

قالت: لا شيء. ربما نزعة حارقة، هكذا، إلى أن أقول.

قلت: لماذا الألم؟

قالت: أزمة معقودة في النفس. ترمضني. الكبرياء تحول بينها

وبيني، هل لأن حريتي الوحيدة هنا؟

قلت: أما من خلاص آخر..؟

قالت: امتناع كامل للوصال.

قلت: أحتم أن ينوء بالواحد كلُّ هذا الثقل؟

قالت: هذه ساحة موحشة. ليس فيها أحد.

قلت: ولا موكب المحتفلين. ولا المريمات الثلاث؟

قالت: ولا جنود التعذيب، بالسيوف والرماح.

قلت: ليس من أجلك. بل من أجلهم.

قالت: ليسوا هناك.

ثم قالت: ومن أجلك أيضاً. فهل عرفت؟

قلت: مريبٌ حمل هذه الأثقال في داخلي، أنا أيضاً. وما من

طريق.

قالت: وكأنني لم أقل. لا أحد سمعني. كل ما فعلت كأنه لم

يكن.

ثم قالت: لا يريدون مني ما أعطيه لهم. أقدم لهم أشواقني

وهتفاتي، صيحات حب وعذابات، جذاذات الروح. ما من أحد

يصغي. لا يريدون. لا يريدون.

قلت أنا: واحدٌ هو الكل. أسمعك أنا يا حبيبي. أريدك أنا. ولو

واحد فقط.

قالت: ما زالت ساحة الجلجثة موحشة. وحيدة.

قلت: الأقنعة غوايات مُقيمة.

قالت: دموعي لكم. أنتم لا ترون.

قلت لنفسي: النور ظلمةٌ كاملة. طبعاً. ماذا كنت تنتظر؟

قالت لي: كانت قرية أمي في الشرقية مرمية على أرض كأنها

سحاب مربدٌ منير بالمطر الوبيل. وعندما تمطر الدنيا فعلاً تتحول

طرقاتها إلى أوحال عميقة الطين، وتترك البهائم حفراً غائرة متالية في

الأرض المعجونة بالبلل.

سوف أقول: ستأتي لهم كهرباء السد، والتلفزيون، وأفلام

البورنو في الشيديو، وفراخ الجمعية، والعيش المدعوم أبو عشر
قروش.

قالت: الطقوس اليومية كانت محور حياتهم. النوم على الفرش شتاء
وعلى المصطبة صيفاً، مضاجعة النسوان ليلة الجمعة المقترجة وكل ليلة
أخرى عند فرج الله، عناق الأرض بالفأس والمحراث، الصلاة في
الجامع، الجوزة وطق الحنك ع القهوة ونف فروة الرايح والجاي، كتابة
العرضحال والشكوى الغفل من الأمضاء، أكلة البتاو بالمش
والجعضيض كل يوم. والزفر أيام المواسم والأعياد، زيارة الموالد
والتبرك بالقدسين وأولياء الله الصالحين وطلب الشفاعة من الإمام
الشافعي والسيدة زينب وكل أعضاء المحكمة الباطنية ببركة الرسول،
السيجة والتحطيب، طقوسية عريقة متحدرة من غور بعيد، مأخوذة
إلى القلب دون تفكير، وليست شكلية.

ثم قالت: والقبح اليومي قناعاً. وفيه شعر أولي وعميق.

قلت: ما من شيء يغفر القبح والمرض والظلم. ولا الشعر.

وسوف أقول: ماذا حدث لنا، ولهم؟ نمت مصر برائحة النفط
وفلوس الخليج. نمت بموتانا، هات الرفش والمعول. سقطوا تحت
سطوة الاليكترونات. لكنهم يظنون يقولون: يرزق الهاجع والناجع
والنايم على صباخ ودانه.

كانت البروجكتورات الضخمة تلقي بأضوائها الساطعة فتعكس
من على خشبة المسرح وتنفذ من بين أستار الكواليس الجانبية تلقي
خطوطاً عريضة حالكة السواد كأنها قضبان حديدية غليظة نائمة على
الأرض، وخطوطاً ناصعة النور تغشي البصر في العتمة الجانبية.

وكانت البقعة الدائرية الرئيسية من النور تنصبّ عليها.
تبدو صغيرة القدر لكن بضّة، مليئة، سيّالة الجوارح في وسط
ساحة المسرح، وجهها مشرق وسعيد.
في صوتها وإيماءاتها هذه الحرية، هذا التبذل، عطاء الجسد
للجمهور طواعيةً دون ضنّ.

وكأنها لا ترتدي، أصلاً، تلك الملابس المقطوعة المسدلة بمكر
وحذق على جسمها المتحرّك الذي يبدو كأنه يعود إلى براءةٍ حسّية
بدائية فلم يعد بحاجة إلى غطاء أو عراء مثل الأجسام الوحشية
تجوس وتربّص بصيدها الطبيعي في عنصرها الطبيعي.

قلت: أيها القناع؟

قلت: أليس الحق كامناً في القناع؟ ماذا تقول المرأة؟

من يقول إن هذه التي تنطلق عن سجية عميقة فيها ليست إلّا
قناعاً؟ من يقول إنها لا تمشي. هنا والآن، حقاً، على برّ هواها.

قالت لي: كان يريدني أن أكون له، في غرفة النوم، كما أنا، لكم
جميعاً، على خشبة المسرح. ذلك مستحيل. تماماً. ماذا باستطاعتي أن
أفعل؟

قلت لها: من أنت؟

كان ينتظرها على الباب، شاحب الوجه، غضوباً، له فكّ مضلّع
وشارب كثيف على طريقة ستالين. وانطلقت تجري إليه من على
الباب، كان ينظر إليها بعبوس، دخل معها العربة الفولكس واجن
القديمة ذات الرفرف المكسور. مضت السيارة إلى ناحية كوبري أبو
العلا.

كان الخواء كاملاً. الحلم قد أُفْرِغَ فجأة من كل محتواه. ليس فيه
ولا صورة واحدة. بل ظلامٌ يهبُّ فيه هواء غريب.

١٩٨٩/٨/٨

عَلَى جِسْرِ مَمْدُود

«يَقِينُ الْجَسَدُ مَوْتُ أَوْلٍ»

كانت مياه النافورة في وسط ميدان العتبة تومض وتُشعّ بالليل وهي تنبثق ثم تتساقط، زهرة مائية كبيرة تتفتت بثاراً.

نقيق الضفادع يصعد إليّ من حول النافورة، عنيداً مليء الخلق. رأيتهن على أطراف الرخام المبلول، خضراً مرقطة ومتفخخة بملامحة داكنة. كانت هادئة وواثقة.

التراموايات تدور حول الفسقية تترز، وتصرّ بعجلاتها الحديدية صريراً يكشط الروح، ثم تشعب - وهي تتأرجح، غاصّة بالناس - إلى مقاصدها، أو متاهاتها. تصعد شارع محمد علي أو الفجالة أو فؤاد أو شارع الجيش، بعضها يدخل من بوابات تتسع لها بالكاد، ومن بنايات كأقواس النصر مخططة بالأصفر والبني، وتنفذ إلى جوف العمارات التي تقع فيها لوكاندة البرلمان ومبنى البوستان وقهوة متايا، وتمضي وهي تصلصل بين الأعمدة المربعة المتينة الحجر إلى عتمة داخلية مُحايِلة، ويأتي غيرها يدور حول النافورة، أرقامها الإفرنجية والعربية، بالأبيض على أرضية زرقاء، غامضة لا تُقرأ في أنوار الميدان الخافتة، وأقول هذا إهمال من المسؤولين يجب أن يُصحح، وعصى السنجة الطويلة المائلة إلى الخلف تطلق شرراً صغيراً في احتكاكها

بالكابلات الكهربیة العلویة المتراخية في الوسط والمشدودة عند
أعمدتها الرفیعة الطویلة، والسائق یضغط على الجرس النحاسي الذي
یجلجل برنين معدني متعاقب متراوح النغمات.

صعدت إلى المقصورة التي تلي مقصورة الحریم، مباشرة، وكانت
مفتوحة من الجانبين.

كنّ یجلسن، بالفساتین المشجرة أو الساتان اللامعة المكشكشة،
المعمولة في البيت، والملايات السوداء النازلة من على الكتفين، وقمطة
المدورة المحزقة على الجبين. أجسامهن حافلة مرتاحة الأعضاء على
خشب المقاعد المتقابلة.

دار الترام حول الفسقية التي یترجرج فيها الماء عند الحافلة
الدائرية الرخام، من أثر سقوط نثار النافورة الدقيق، ویصفو ویروق
في الوسط.

السمك محتشد متراكب في الماء الضحل، مكذس فوق بعضه
البعض، بطيء الحركة، سمیناً وممشوقاً، شهی الشكل، وفكرت أنه
يمكن أن یؤكل، هكذا، نیناً وبریناً، لأنه متاح وسهل وجاهز، ثمار
البحر ثمار الأهواء العميقة.

سقط عليه ضوء مركز ساطع كالبرق، لحظة واحدة، عند دوران
الترام.

جلد القرموط الأسود الدامس، لامعاً وزلقاً وشواربه كالفسائل
متوترة تجوس، عظام رأسه مفلطحة تبدو صلبة عنيدة المكسر.

والثعابين النيلية تنسل وتنساب بنعومة خارقة من بين جسوم
السمك الأخرى، وتحتها وفوقها، تلفت حولها وتنثال منها، دهنية

الملمس، جياشة بطاقتها الداخلية المتلوية، في قوتها تصميم وعزم على التلمس والبحث المستمر.

البُلطي المتفخ الصدر بلحم النيل، أبيض الزعانف، لبني الزرقة، غض، فلوس قشره البيضاء المتراكبة ثمنة واضحة وحادة الحواف.

البوري والمياس والقاروص، بحمرته الخافتة الخجول، بخطوطه العريضة اللامعة، داكن الظهر فاتح البطون، حلقات عيونه الصافية الزجاجية فيها إدراك يتجاوز كل شيء، والخياشيم حمراء ترتعش بحساسية مرهفة، مكومة فوق بعضها البعض، تنزلق وتتماس في سباحتها اللانهائية محصورة المدى.

وسمك موسى رقيق الجسم، مبسط، عروقه البيضاء، خيوط لبنية اللون، تضرب في شفافته النقية.

وزعانف السردين تتصب وتطش الماء بارتطام لزج في اندفاعاته واصطداماته ووثباته القصيرة على مسطح العمق الضحل، وغوصه بعنف، رأسه أولاً، يشق طريقه تحت الكتل المتحركة ببطء أو الساكنة تطفو مستكنة على فراشها المائي الكثيف، جسمانيتها مطلقة، وجمالها كامل.

ثم أكمل الترام دورته.

من وراء الحاجز الخشي الذي يفصل بين المقصورتين ولكنه لا يصل إلى سقف الترام أحست ألفة الاجسام النسوية التي تأتي على الفور بين الستات البلدي، وسقوط الكلفة بينهن في الأماكن العامة.

كان الصوت يتموج مبطناً بشهوية دسمة:

- يا دي النيله على رَجالة الزمن ده ياختي عاديكِ . دلوقتي يا
حسرة، اللي يتجوز واحدة عايزها تصرف عليه وعلى أهله كمان . كان
زمان الواحد يعرف مقام الست، ويعرف يهنيها . دلوقتي حتى أولاد
الذوات شحتوا عاديكِ . وولاد البلد قال إيه قال عايزين يعملوا
ذوات، والستات هي اللي تشتغل يا حسرة .

ردّ عليها صوت تبدو صاحبتة في أول الشباب، لكنه منذ الآن
صوت امرأة تحققت نسويتها وأحبطت أيضاً :

- يوه . . والنبي عندك حق يا ختي عَدَاكِ الغلط والعيبه . قال ما
عيبه إلا العيبه دا الجدع دلوقتي ياخذ مراته يأكلها سندويش ويركبها
الترامواي اسم الله على مقامك وقال ياما هنا ياما هناك . زمان كان
الراجل ياخذ مراته عند الماوردي ولا سمعان تقطع قماش من الغالي
زبي ما هي عايزة، ويودّيها عند الحاتي، ولا الحاج علي السهاك،
ويأكلها أكلة معتبرة . دلوقتي الجدع من دول يخاف يمشي معاها على
كوبري الست بديعة لحسن نفسها تروح لقزازه كازوزة .

ويعود الصوت الدسم الرخيّ الشبعان :

- يا ختي قطيعة تقطع الرَجالة وسنين الرَجالة .

وواضح مع ذلك أنه ليس عندها أحلى ولا أشهى من الرَجالة،
وسنينهم .

خدعني الكمساري وأعطاني تذكرتين بتلاتة تعريفة بدلاً من
حقي : تذكرة بقرشين . ورأيتة يمدّ يده بتذكرة بتعريفة إلى السائق
فيضعها في جيب معطفه الكاكي الكبير، وقلت : «كم تذكرة يحوشها
كل يوم؟» وراح الترام فجأة يلف ويدور في شوارع جديدة عليّ،

غريبة عني، ولكنني أعرفها بشكل ما، كأنما هي شوارع الاسكندرية
المبلّطة بأحجار البازلت السوداء المضلّعة يهبّ عليها هواء البحر
المبلول، أو شوارع زيورخ والبنائيات الشاهقة تحفها بصمتٍ وثقل،
ورأيت على غير انتظار أن في الترام بجانبني سيّدة نوبية نحيلة ضاوية
العظام تُحفي وجهها بطرحة سوداء على طرفها خطٌ عريض بنفسجيّ
داكن، وهي تكحّ كحّة جافة، وكان على حجرها ولد مجروح في
جبينه، والجرح مربوط بعصابة زرقاء كامدة تبدو على قماشها آثار دم
سوداء.

ثم نزل السائق، وتركنا.

وانطلق الترام، دون توقف، يجري فوق انحدار الجسر، على
صفحة النيل العريضة، بين الموتين.

وكأنما كانت قد قالت لي:

- الواقعة الحسية، الفيزيقيّة، البحت، هي وحدها المطلق. هي
الكينونة. صميم اللحم، وحده، هو الحق.

وكأنني لم أقل:

- أعرف. أعرف هذا في لحظة اندفاقة النبيّ من حقويّ. نشوة
التحليق، بأجنحة الله، في سماء لا قرار لها. أعرف. أعرف.

فهل قلت: أمّا همس الأحاسيس، وخيالات التجريد، فهي
بضرورتها نفسها غائمة ومقطوعة، مهلهلة مها أحكم نسقها؟
هل قلت لها أيضاً:

- أنت، في جسمانيّتك الخالصة، في جمالك الكامل، غير إنسانية؟
قالت: انظر إلى وجوه القديسات، جامدة تماماً، جميلة بثباتٍ
تماماً، في لحظة الاستشهاد، وهنّ يمتنّ.

قلت لها: أعرف وجهك أنتِ في لحظة ذروة العشق، وأنت تأتين،
على شفرة النشوة الحادة النهائية، هذا الجمال في الموت، هذا الجمال في
القتل، هذا الجمال على آخر المتعة، هو، هو، نفسه، جمال القناع.
جمال الأبد. نظرة الحياء الكامل كأنه إنكار كامل.

وقلتُ أيضاً: فيما وراء الانساني. فيما وراء جسر الققد.
قالت أيضاً: عندك هوس التثبيت. جنون الحجر. وهم الديمومة
المستحيلة.

قلت: الجمال الكامل - كالعذالة الكاملة - هو أيضاً لا إنساني.
صرخته خرساء إلى الأبد.

قالت باسمه، بخفوت، بعابثة كأنها آليّة: أنت كالقطط، تأكل
وتنكر.

قلت، جاذباً، أحسن سخافة جدّتي: على العكس. قبلتك على
يدي ثابتة إلى الأبد. وعرفاني بها مقيم حتى عبور ضفة هذا الجسر،
هذا الحب، الذي هو نهاية.

قلت لها: شيخنا أبو العلاء قال: «حياة - كجسر بين موتين. وفقد
المرء أن يعبر الجسر».

قلت: مُعيداً ومملاً: طعم حبة ثديك في فمي لا يزول. سفرنا معاً
لا يُحطّ الرحال.

وقف الترام وحده.

وصل أمام حديقة، كأنها في «ميناء هاوس»، وارقة وأثيرة بأشجار
السرو والنخل والجازورينا والسنتط والمانجة والجميز. وكنت وحدي،
أشمس، على كرسي من الحديد الأبيض المشغول. مسطحات
العشب الخضراء ممتدة أمامي حتى النهاية. مروحة البشر الارتوازية

عالية تدور ببطء في السماء شاحبة الزرقة . وكأنما الصحراء، بعد،
هناك، عميقة ومنتظرة .

كان المبنى يرتفع إلى يميني، بأدواره المتتالية، شاهقاً وعريضاً، فيه
شرفات ناتئة، حجرية، بسياجٍ من أعمدة الرخام القصيرة مسحوبة
عند الطرفين وملبثة عند سہانتی السيقان اللامعة، وفيه مقصورات
داخلية تغوص في آبار السلام المكشوفة .

وكانت الصروح الثلاثة الشاخحة تبدو لي، على ثقلها ورسوخها
الألفي، محلقة في السماء البيضاء تقريباً، بلا وزن .

كان ميلاد وصفي يتجه إليّ، وخفق قلبي من المفاجأة . نسيت
الآن تماماً كأنني لم أعرف قط أنه غرق في العجمي منذ أربعين سنة،
وكان يتسم وفرحت ببلقائه وقلت له بلهفة : «ما رقم غرفتك؟» قال :
«لا أعرف . وأنت؟» قلت : «١٦» قال : «هذا رقمك السحري، أليس
كذلك؟ خل بالك!» وفكرت أنه سيلقي علينا الليلة ما يحفظه من
أغاني الصيادين والفولكور الاسكندراني، وأنتي سأكتبها، وأضع عنها
مقالة هامة . ولم أجده أمامي، ولكنه ترك في يدي حس يده وهو
يصافحني مودعاً إلى لقاء، وكأن يده غير المرثية ما زالت تمسكني . ولم
أستغرب . وكانت الكلاب تنهش الزروع، بصمت عاكفة عليها .

قلت لنفسي : عيون زرقاء بنار الجشع والجوع المستمر، منضبطة
الاتقاد، تعرف الكثير جداً، ولا معرفة عندها بشيء .

آلات كفاء قادرة، نهشة .

قلت : نحن . نحن كالسمك، كالضفادع . لكن جسمائنا
ملوثة .

قلت: أيضاً: هنّ أخريات. كلُّ منهن مستقلة، معزولة، تمائيل، بل دُمى مصقولة، أنداؤهن المبدولة الصلبة مكشوفة على عظام القفص الصدري. بطونهن مسطحة. معاديات، لأنفسهن، للرجال، للعالم.

قلت: أنصاف حقائق وأشباه حقائق. ككل شيء.

قلت: أمّا الدفء، والمعرفة، والحقيقة، فليست هنا، أو هناك. ليس لها مكان، ولا تاريخ.

قلت مكرراً ورتيباً: صحيح. ووهمٌ لا يقوم على ساقين.

الكلاب تشبه نفسها تماماً، كما هي في نقوش الأحجار العتيقة، كأنها بنات آوى، لم تغيرها أزمنة سحيقة.

طويلة الأعناق، مسحوبة الجسوم. جاءت في جماعات من أطراف الصحراء، حلقات وفُرادي. تنبح أحدها الآخر، وتعوي، ترفع رؤوسها المتوترة، على آخرها، إلى القمر المضيء بنور صلب.

كانت ضراوتها وحشية، وكانت تتوقّز للهجوم، أو للفرار، خوفاً أو يأساً، مشحونة بتهديد كأنه آتٍ من وراء القبور.

٨٩/٨/١٢

القرود والإطفال

«تمزقات النور ليست مظلمة»

كنت أعرف أنه حيوان عاقل . بل كنت أرى في عينيه عقلاً لم أراه من قبل في عيني أحد .

تصوّرت أنه سوف يتجه إليّ بالحديث، على الفور . لكنه استمر ينظر إليّ، فقط .

كان عريض الكتفين، بارز الفكّين، وصغير الجسم . في لون الحديد الأرمـد .

ورأيت أنه يحمل، على رأسه العريض المفلطح، قرص الشمس المنطفيء، متأرجحاً بثبات على قاربٍ شاحبٍ النور .

وكان شعر جسمه يتدلّى عليه، من حول رقبته الممتلئة وعلى منكبيه في خُصلٍ مجسّدة تنسدل عليه حتى تغطّي قضيبه الكبير . وكان جسده نيراً من خلال هذا الستر .

لم يتكلّم .

في الصبح الأول، في أول الصبح، نزل من على السندرة التي تعلو الحمام في بيتنا القديم، وكان الحمام الأبيض حوالبه يهدل بصوت غريب، وقد ضمّ جناحيه، واقفاً على ساق واحدة، رفيعة وطويلة ومحمّرة الجلد .

نزل القرد الصموت على السلم النقالى بخفة ورشاقة، وحركاته فيها حكمة ليست فطرية بل متدبرة وما زال هادئاً، صافى العينين.

ثم بسط جناحيه الواسعين من تحت شعر جسمه المنسدل.
قلت: من فصيلة الملائكة.

كان جناحاه طويلين، قوين، وفي حركتهما المفاجئة هبّ عليّ هواء بارد.

كنت تحت جناحيه. كان يطويني تماماً.

وقال لي عندئذ: ما دامت عين المعرفة مفتوحة فلماذا لم تهجع عين الجسد؟

وقلت له عندئذ: عين الجسد أيضاً ترى حقيقتها. وحقيقتها لا تُدخض.

وعندئذ سطع منه النور الباهر الصاعق فأغمضت عيني مخافة التهلكة.

وفي البرق المحيط سمعت صوته: كل نورٍ آخر هو الظلام.

وكنت على يقين كامل بأنه لم ينطق، قط، هو اللسان الدائم المتحرك أبداً بشهوات الروح وعزم الجسد.
بكى قلبي.

أما هي فكانت جالسة عريانة تقريباً، على الصوفا الوثيرة. ساقاها كعمودين نازلين على السجاد العميق الموج، ومياه الفسقية المنحوتة في الرخام تسيل بخير ناعم من فوهات النافورة القليلة الارتفاع.

وكان القرد العاشقُ يقعي تحت قدميها، يرفع إليها عينيه العسلتين بنظرة عبادة.

مدّ ذراعيه وجناحيه معاً، وأحاط ساقيهما العبّلتين بأطرافه الأربعة،
وانطبق الجناحان بصوت ارتطام لحميّ. كان فخذها العاريتان
تطفوان فوق كتلة العناق الأرضي، وكان بطنها المدوّر الرائق السمرة
يستقر، براحةٍ وثمّاسك، على رأسه المدفون عند ملتقى الفخذين،
وكان صدرها الشامخ، عالياً فوق، مثمراً برمّانتيه الخمريتين
المورّدتين، تحت الجّاكته النايلون الشفافة، فاتحة الزرقة سهاوية النور،
مفتوحة. وكانت أكمامها القصيرة وفتحة الطرفين كلها ملفلفة بتطريزٍ
متراكب التلوّيات على بعضه البعض، متنّ نفس اللون ونفس
النسيج.

قلت: هذه قدسيةٌ تتجاوزنا.

وقلت أيضاً: كل موازيني ترجّحها هذه اللحظة، الساكنة الأبد.

وقلت أخيراً: ومن يرصد حسابَ الزمان غير المرصود؟

أخفيت عيني، وفكّيتي، وأسنانني القوية، بين فخذيها.

في البحيرة الساجية عرفت أن في ظلمة هذا الجسد نوراً لا مثيل
له، وفيه بهاء لا قياس عليه. كل شيء آخر - مضي أو سوف يجيء -
جافّ خشن معتم.

وقلت: في هذه عمى اللحظة أزلُ البصيرة.

وانتظرت انقلابَ الموج وضرباتِ عاصفةِ الشهوة.

كنا معاً، جميعاً، وكنا قد شارفنا على حمرة صباحٍ صامت. دخلنا
حديقة مهمّلة، عليها ورق الشجر اليابس، ويقايا السنين. كان
سورها الخشبي مفكّك الألواح، متداعياً.

الأشجار الدهرية الضخمة وارقة وغصونها الكبيرة، مفروشة

واسعاً، متهدّلة وشعثاء، تحتها دِكك عتيقة متآكلة الأطراف مشروخة الخشب.

وكأنني نشقت رائحة التراب الطبيعي القديم تهبّ في الممرّات المظلمة التي تغطيها حشائش جافة وقوية العود.

أما البيت فكان كبير الحجر، منخفضاً، ليس في جداره السميك إلا نافذة عريضة واحدة، مفتوحة على غرفة عريضة واحدة، مهجورة ومعتمة، وفيها بيانو ضخّم، مائل على جنبه، مكسور الأقدام، والصفوف مكسوة بقياس كريتون أصبح الآن من غير لون، مطموس النقوش. ورأيت أن البيت يقع على جسر رملي مرتفع فوق شاطئ النيل المهيب، أمواجه في الفيضان متلاحقة خصيبة الحمرة مُدممة.

وكانت ترتفع على جدار البيت الخلفي تعريشة عنب، عناقيدها صلبة محجوزة العصارة، وأوراقها العريضة خشنة اللمس، مانعة.

قلت: لماذا الخراب؟ والبينونة؟

قال: لأن الصمت نذير الفناء، وصنوه. لماذا صمتت؟

قلت: لم أنطق كلمة زور واحدة.

قال: لن تجتاز. لن تصل إلى الشط. ليس لديك من مركب ولا

مجداف.

قلت: ريشة ممت شراعي الوحيد. تحته إبحاري وعبورتي. لن

أخشى تحته موج الظلمات. متى أجد عذوبة الصحبة، ورفقة أرواح

الفجر؟

وكان البيت القديم قائماً هناك، كأنه من بيوت عمال الدريسة في

الزمن القديم، حارساً على قضبان السكة الحديد. ولم يكن هناك

حوله شيء، ولا أحد. في خارج حديقته المنسية لا شجر، ولا غيطان. فقط، عميقاً تحت الجسر الرملي العالي، يجري النيل، فسيحاً مرتفع الصدر بموجه المحمر الغضوب.

ورأيته يقف على باب البيت وحيداً، مدموك الجسم، شعره الرمادي يكسوه حتى الأرض، ورفع ذراعيه إليّ، في عينيه نظرة ترصدني، ولم أفهم ما في حركة ذراعيه، هل هو تهديد، أم تصرع؟ كان جناحاه مطويين.

قلت له: أدركني. إن قدمي غير ثابتين وأخشى أن يجرفني الفيضان. لم يقل شيئاً.

وكأنما قال: ما من نجدة لك أبداً. اجتاحك الطوفان أم خلاك، سواء.

سقط قلبي. كان يحمل وجهه، مربع الفكّين، حادّ الأسنان، وكانت عقود الفيروز وأطواق تمام الخزف الأخضر تخنقني.

وكأنما انحسرت، هي، عناً. بارحتنا. البينونة قاسية. الفرقة لا تطاق، والقطع.

لم نعد إلا أنا، وهو.

قلت: أنا؟ أم هو؟

أمام البيت، وجدت الطفل نائماً على الرمل المحبب والحصى والزلط، بلا حراك. كانت جلايته كالحة من التراب والطين والدم الجاف، وممزقة تبين منها عظام صدره الناتئة السوداء. كان وجهه محترق اللون، مغمض العينين بعناد، والجلد مجعد حولهما. كان فيه مع ذلك شيء ما، لا أتبيّنه، يقول لي أنت هو الطفل الذي كنت، مع كل لغوية، ولما تزل.

صرخ فجأة وهو نائم، صرخةٌ وجعٍ طويلةٍ طويلةٍ، متقلبةٍ.
معدّبةٍ، لا تُحتمَلُ.
من غير أن يستيقظ.

كأنه تعلّم أن يتعايش، من غير حلٍّ، مع الألم المُقيم، ومع الكابوس.

رأيته مرّةً أخرى، يمسك بالعلم الأخضر الأبيض الأسود يلوح به
ويطوح بالحجارة سمعت انفجاراً مكتوماً للغاز المسيل للدموع، بين
حيطان الأحجار الألفية، وقرقعة الرصاص. كان الطفل تهلّ من
عينيه دموع ليست من الحزن ولا من الألم.

ثم رأيته يسقط مضروباً بالنار، مرة واحدة، جامداً متصلّب الوتر،
على أرض الجليئة. دون صوت. وكان ينزل من ركنٍ فمه خيطاً
رفيع من الدم.

قلت: مطلق الألم تجريد. ليس في الألم مطلق. هو دائماً معجون
باللحم الحيّ.

قلت: أليست حقيقة الحس في مجرد تقريرها؟ دون برهنة. دون
دليل. قوتها قوة الحلم. سطوة الكابوس لا تُنقض. ما الذي يعطيها
نهائيتها؟

ولكن الكابوس، هو غير نهائيّ، مهما كانت سطوته. قلت.
كان الآن يقف في مواجهتي، مخني الرأس، صدره محلىّ بتسائمي
وأحجيتي المنقوشة بخطّي، بأبجديتي، وهيروغليفيّتي. شخاليل
الكريات الذهبية تتدلّى من رقبته الغليظة دون أن تصدر عنها أدنى
صلصلة.

وكان يصغي إليّ، دون أن يتحرّك، وكان هو وحده يدرك معنى ما أقول.

رأيتُه ينقسم أولاً إلى ثلاثة أطفال، متطابقين مع أحدهم الآخر، ومعه. ثم أربعة.

ثم لا نهاية منهم، واقفين صفوفاً متراصة متعاقبة حتى الأفق، حتى آخر المدى. كل منهم صدره محلّى بنفس التهايم والندور، كل منهم تتدلّى من عنقه السميك أطواق كريات الذهب، ولكل منهم جناحاه المطويان تحت شعره الأرمم المنسدل.

أحسست. ، في جسمي، أن الثلاثة الأبيكار ترغمي على كومات من الفحم المتقد على بلاط البيت القديم.

صعد من الحجر الصلب المتوهّج بالنار دخان اللحم والشعر المحترق، ورائحة الشيء الجافّة.

ولكنها ظلت تحدّق فيّ، نظرتها يقظة، حية، وعاقلة. لا شكوى فيها. ترصدني بهدوء. عيونها الستة في داخلي، أنا.

وكانت ظهور الأطفال القردة الإلهية مقوسة الآن على النار، فوح احتراقها قويّ يملأ البيت، لا ينجاب.

انطفأت الأنوار، ثم أضاءت وحدها. وانطفأت مرّة أخرى.
مَن معي في البيت؟

كان على البلاط العاري ورق ممزّق يتطاير به الهواء، قصاصات صحف، تبيّتها، وصفحات مكتوبة منتزعة ومشعّثة ومطبّقة ومتعرّجة القطوع. سمعت خشخشة الورق، قوية، واضحة في السكون.

قلت: مَن يمزق الظلام؟ مَن معي في البيت؟

ورأيته ينتصب قائماً أمامي من جديد، من بين رماد الأطفال
الثلاثة المحترقين، رافعاً ذراعيه إلى أعلى، مفروود الجناحين بشعرهما
الكث، عريضين، متوترين، ممدودين إلى آخرهما.

كان مُرعياً. وعدواً.

وكان قريباً جداً إلى قلبي.

اندفعت أفرّ منه.

انطلقت أجري، أهبط السلم الحجري الوعر.

كان ورائي، أحسست أنفاسه السخنة، ولمحتُه، بطرف عيني،
ومعه فأس مدببة، حادة السن، تومض في العتمة الخفيفة.

كان النور يبدو لي خطأً أنيساً من تحت الأبواب الموصدة وأنا أتحدّر
لا ألوي على شيء، أنزل السلم التي لا تنتهي.

ولا الأبواب تنفتح، ولا صرخة الاستنجاد عليها ردّ.

السلم هادئ مسالم لا يابه لنية القتل.

وحقّي من قبل أن أصل إلى الباب الخارجي، المفتوح على مصراعيه
تحت، رأيت أن الأرض نورت بنور النبات الأحمر والأصفر والأبيض.

١٩٨٩/٨/١٢

رقصة الشواق

«وطيور العشق جُثوم»

كنت أربيها، على سطح البيت القديم، في السندرة، في البلكونة
المطلّة على شارع ابن زهر، في راغب باشا، وفي الجانب التحتاني من
مكتبي الصغيرة ذات الرف العلوي والضلفتين الزجاجيتين.

كان منها الأبيض الشاهق متقدّ البياض، ممتلئ الصدر، هديله
عميق.

ومنها الذي يضرب ريشه الهفهاف إلى زرقة وحمرة متقلبة مترقرقة،
منقاره طويل ولكنه صموت كتوم.

ومنها البني الناعم، نكهة لونه أفريقية ساخنة وله غنة رتية
الإيقاع.

والأسود المرقط الذي تسري في طوقه المنقوش شهبه رمادية مائلة
إلى البياض، يتخطر بثقلٍ ودلال، ضحياً بطيء النغمة.

وكان منها الأملح المنقط خفيف القامة دقيق المنقار، طويل السيقان
عمر جلدتها يتزى ويتوثب تطير به النسمة.

ومنها موشى القدمين بزغب صغير يرفرف، وحده، إذ يهبّ به
الهواء.

ومنها نحيل القَدَّ مسحوبَ برِّي الجسم كأنما شفهُ هوى مشبوب .
لكن مياه عيونها، جميعاً، كانت صافية وعميقة، وكأنما فيها
غضب نقي .

وكان ريشها الصغير يتناثر حولي، على الأرض، بين الكتب، تحت
الكتابة، في كل مكان .

ويجف زبلها الأبيض اليابس على الأرض، على المائدة الرخام
المستطيلة الدوران، فوق رف المكتبة وفي قاعها، وحتى على السرير،
فأجمعه وأبيعه بالرُّخص للرجل الذي يمرُّ تحت في الشارع وينادي :
زبل الحمام .

كانت تحوم منذ شقَّ الفجر، وتطير، تحبب خشبَ النافذة وزجاج
البلكونة، ثم تطير، ترفرف بحرية، وتعود إليّ في وقلة الظهر فتستكن
إلى حماي . وكانت تسبح بهدوء، دون صوت، موجعة للقلب، في
سواء ليالي القمر .

طارَت الآن عني . هل تعود؟ هل تعود؟
بحثي - حتى الآن - عقيم .

بعد سنين طويلة رأيت حمامتين بيضاوين في ريشها نثار البني
الفاتح، تبختران بثقة وتمكّن في دكانٍ ضيق في شارع الصليبية
حاشدتي الصدر، تنقران أرضية الدكان دون تعجل . ورأيت فجأة أن
هذا الدكان الفقير الغريب له أرضية ترابية، وكانت فيه رفوف خشبية
مُسوّدة اللون، معظمها فارغ، وبعضها عليه ما يشبه الخردوات،
وعلب صفيح كبيرة مقفلة وصدئة، وزجاجات بيرة وويسكي
وكوكاكولا فارغة مرصوفة . وكتب مدرسية مستعملة وكراريس
وكشاكيل وأقلام رصاص وأقلام حبر جاف، وبالونات منفوخة علاها

التراب، وعجلة بسكليت دائرية ضخمة مما يُستخدم في السيرك
والموالد، واحدة، وُحدها، مقطّعة الاسلاك، وبكر ولفف خيط
أبيض وأسود وحلويات وكراملات ومصاصات وبراغيت البست في
برطمانات قديمة الشكل، وأبر الوابور والأقماع وأكواز اللوف الأبيض
الخشن الفتائل والليف الأحمر المتهدّل الخيوط، وصناديق خراطيش
السجاير الملونة ورضّات كليوباترا وروثمان جنباً إلى جنب مع علب
هوليوود وكوتاريللي وبنّحاري الفارغة، روبايكيا قليلة ملقاة على
الأرض، نفايات البيوت طشوت مخرومة وحلل مطبّقة ومرايات
مكسورة، وأكوام مجلات عربية وفرنسية قديمة بهت أغلفتها الصارخة
الألوان وتمزّقت، وحوض حمام من الرخام المشروخ الذي كان فاخراً في
زمان العزّ، منزوع الحنفيات والمواسير الآن، مسنوداً إلى الحائط
المزدحم.

والرجل، بجلبابه الرماديّ، ولحيته الرمضاء الهائشة، جالس على
كرسيّ حمام صغير يصنع لنفسه الشاي في إبريق من الصاج الأزرق
المدوّر على سبرتاية صغيرة، يبدو هادئاً، سارح العينين في أفق خاص
به وحده.

رأيت الحمامتين تأتيان إلى قدميه الحافيتين تطويان ساقيهما تحت
الأجنحة، وتستنيان إليه، وقد انسرح الريش على الجسمين
المتلئين.

صبّحت عليه، واشترت منه نسخة من «ألف ليلة وليلة» قديمة
من أول القرن، وناقصة جزءاً، وأغلفتها مفقودة، ودفعت له بعد
طقس الإفصال الشكليّ القصير، جنبهاً واحداً. وعندما سألتني هل

أكتب للإذاعة؟ وقلت له نعم، خصم لي عشرين قرشاً مرة واحدة على سبيل التحية والرجولية.

قلت: أين حاتم أشواقي الطائرة؟

فنهض الحمام، يتأرجح وجسمه يهتز بين أقدامنا، وخرج إلى الشارع لكي ينقر حبات طماطم شديدة النضج تفجر جلدها الأحمر الضارب إلى صهبة قانية عن لحم طري متهدل به بذور بيضاء كبيرة، كانت الطماطم ملقاة تحت جذع شجرة سنط عريضة خشنة مشققة اللحاء، صاعدة إلى ما فوق البيوت القديمة المائلة على أحدها الآخر، مبنية بالبغداد لي والطوب الأحمر الذي اسود الآن بين عوارض الخشب المتقاطعة ظاهرة للعيان. والشجرة تعانق أختها الصاعدة من حفرة واسعة عميقة في خرابة جنب الدكان، من أثر هدم. أحجار الهدد القديمة والأنقاض ما زالت في الحفرة قد غاصت وجفت في تربتها وفيها ربوات قليلة الارتفاع ووهجات ترابية تصلبت وبيست، سوداء طينها لا يجف تماماً ولكنه ليس مبلولاً تماماً، جذور السنطتين التوأمين تضرب في هذه الأرض، عَصِيلة عَبْلة مُعْرَاة، خشبها يبدو أكثر عُضرة وفتوة من خشب جذعي الشجرة الواحدة المنقسمة اثنتين، والأغصان الفينانة تتشابك فوق سطوح البيوت المتداعية، وتراكب، وتضع ظلّة خضراء عريضة.

قلت: لماذا تسحرنى الشجرة الوحداية المشطورة، غير منفصلة؟

قلت: هل لأن الحمام السهائي، بعيداً، يقطن أفنان هذه الشجرة

التوأمين، حضنها وأعاليتها، جائها فيها جُثوم الموت؟

أما الحمام الأبيض الأرضي الشكل فلم يلتفت إلي أدنى التفات.

قلت: المحبة تحمل كل شيء.

قلت: حانت ساعة تَلْفِي . تهتكت روعي شوقاً .

كنت على شاطئ «كامارين»، أطلّ من شرق «أوتيل دي فرانس»
العريضة الفخمة . أمامي على المائدة الرخامية كأس طويل من «ماري
الدامية» على حافته لذعة الفلفل الحادة . هواء المحيط يهبّ عليّ من
خليج غينيا بسائه المنخفضة المحملة بسحاب أبيض سرعان ما سوف
ينجاب عن حرّ مصوِّح .

الصخور السوداء ناتئة الحواف عميقة الشقوق شواهد ماثلة أبداً
على امتياح بركاني قديم وسفوح الرمال تتهادى بيضاء طحين ناعم
مسحوق جيداً تتلأأ في نقط متوهجة مثل سنّ الابرّة . وأشجار جوز
الهند سامقة يمسّ سَعْفها بالثمار المحمية المكنونة في العلاء .

الخليج الاستوائي في بهرة الصبح هاديء موجه لا زوردي كأن
صفحة الموج سماء توأم أخرى مبسوطة تحت أختها حتى شفرة الأفق،
لا تكاد تترقق .

شباك الصيادين مفرودة على حجر الكورنيش المنخفض، مغسولة
تفوح برائحة السمك وقد ركعوا تحتها، بأجسامهم الناحلة المفتولة،
وطيّات اللباس الإسكندراني الأسود ملمومة تحت جنوع السيقان
الجافة، يرتقون قطوعها بإبر طويلة تومض عندما ترتفع وتنخفض بين
فتائل الشبّك .

شَبَك حبيبي شَبَك .

القارب الصغير، مشدود الأضلاع، يقف على سيف البحر، عند
الخط الفاصل بين الرمل والماء، يمسك دَفْتَه القرْدُ الإلهي العاقل،
مدموك البنيان .

القمامات الأنثوية الرشيقية، أراها، في عكس النور، مجسمة
سوداء، والنهود ثمار أخرى لامعة الجلد ناهضة بعصارتها الكثيفة
المتناسكة.

تنزلق الحثائم الداكنة مناسبة، بالكاد تماماً على سطح البحر.

هل نزل البحارة بختاجرهم العريضة وذهبوا بهم إلى سفينة
إسبانية جوانبها مصفحة برقائق الذهب، غارقة محملة بكنوز القراصنة
القدامي؟

ما الذي يهتف خلف القلعة العريضة التي لا يكاد الزبد النقي
البياض يرغي تحت سفحها؟

أراه من فوق حافة «ماري الدامية» وأوقن أنه ليس ثم شيء.

كل شيء سوف ينقلب بين لحظة وأخرى إلى نقيض ما يبدو عليه.
القارب السحري مركب سمك فقير عاد به الصيادون إلى المرسى
بعد كدح ليل طويل في قبضة الموج. تتزاحم بنات الأنفوشي وبحري
ورأس التين عليه، والستات التُخان بالملايات السوداء النازلة من على
الأكتاف المدورة تبدو منها قمصان النوم غير النظيفة تماماً عارية الأذرع
والنحور، ليأخذن منه بالرُخص شروة سمك ملء القفة، ملء الحلة
من السبارس والشير الصغير، أو ملء الكروانة جمبري عاجي الجسد.

السفينة السحرية شراع مبسوط في نسيم الصباح، فرد جناح حمامة
بيضاء، تحلق وحدها في سماء الإشارات، مَبْحَة صَبَابَة، وَجْدُ لَنْ
يَبْقَى مِنْهُ أَثْر.

أترقب، وأتوجس خيفةً من الزوال والذثور، ملهوفاً أمام دوران
دراما لا سيطرة لي عليها، لا أدري عمّ تتمخض في أية لحظة. أحس

رفرفة في داخلي لا أعرف أن أهدئها، ولا أريد أن أطامن من روعها.
وأعرف أن هذا كله قرين الجلي وأن العطب لا محالة مُدركي،
والتهلكة.

هاأنذا في سخونة أحشاء العالم. أئداؤها المليئة تُرضعني سلافةً
حارة ثقيلة، صبواتي تذهب إلى البطن الخصب الوثير والأرداف
العريضة السمراء، أما الخمر المشعشة الحق فليست مرثية ولا
محسوسة، ولا تتبع إلا عن هذا الغنى الفاحش الذي أصل في نشوة
سكره إلى غايته، وما لهذا الأمر من غايةٍ ولا حد، فما من لذةٍ أعرفها
إلا وراءها أوفى منها وأتم. متاهات الفتنه والمعرفة لا أرعوي عن
الضرب في مسالكها ولا أخشى الهلك فيها.

مددت يدي وملؤهما لئذاذات الهوى وعلقم الموت معاً. منار
عقيدتي بلا خجل. هفيف الحمام الذي يغيب وما بلغت شيئاً. ظلاله
قَطَعْتها حافة الأفق الحادة. سكران من الملاء وسكران من العوز،
سكران بالتحقق وبالطلب، بالنعمة وطعن الحرمان، سواء، بلا
صحو.

لماذا أحبتك؟ لماذا؟

عمدة الحب اللقيا لا الفراق.

لكني لا أفرق، من سُكري، بين الوصل والنفرة، وما من إفاقة لي
على القربى، وعلى البينونة، معاً، وما تزول أشواقي عند التلاقي
والمعانقة، بل تفيض.

فأين المفر؟ وأين الملاذ؟

قلت لنفسي: لا يكون لك، منك، شيء.

وكنا نعبّر كوبري السلطان . الأنوار العالية تتعاقب وتسقط على
حجرها داخل سيارتها الفولكس واجن ، وتُضيء في ومضات متلاحقة
لحم فخذها السمراوين ، مفتوحتين قليلاً ، حاشدتين بشهوتي .
انحسر الفستان الخفيف قليلاً إلى أعلى ، وعليه علبه السجاير
الـ «ستايڤيسنت» وشريط الكبريت منزوع الغلاف . ألتقطها من
الوهلة الطرية المتحركة أهون حركة في تركيزها على قيادة السيارة
والتحكّم فيها ، وأشعل ، وأنفث ملء الصدر من دخان أول احتراق ،
وأعطيها سيجارتها مبلّلة أهون بلل بأثر نية قبله متطايرة من على
الحافة المستديرة .

وعندما عبرنا الكوبري كان الشجر المتكاثف على رأس النيل يأوي
النُقط الغافية البيضاء مطوية الأجنحة .

أنوار الشط الآخر تلوح وتختفي تحت سَعف النخيل بين المثدنة
والمسلّة الصغيرة الخجول ، منسية تقريباً .

وعلى ضوء النجوم رفعت إليّ وجهها الخمري المدور ، قناعاً
مصقولاً كامل التدوير ، لا تهتز فيه خلجة ، وكانت قطرات الدموع
تنزل من عينيها الواسعتين المفتوحتين ، كل قطرة مدوّرة ومنفصلة
وتنزلق بنعمومة على صفحة الخد وتنزل إلى منبت التهدين المفروشين
براحة في فتحة البلوزة الواسعة ، دون صوت ، دون كلمة . كأنها
وحدها تماماً . وما زالت تمسك بعجلة الفولكس واجن وتسيرها بحركة
آلية .

رمقتني لحظة واحدة . بنظرة حب لا مثيل لها . سرعان ما عاد
القناع نظيفاً كامل البراعة .

رأيت أن أشواقى سوداء الجسوم، يرقصن حواليّ، عاريات
الأثداء، والموسيقى الحوشية تحنن ثم تحتقن. أوصاهن تعلو وترنن،
أشعة أجسادهن مبسوطة مفرودة أمام عصف الشهوات، تهبّ بها
الأنواء وتنام على الريح المرخاء.

يتمددن ينتصبن، متوترات بين أنقاض أحلام غابرة مليئة بالدموع.
الأرض تشوخ تحت الأقدام الراقصة ما تكاد تلمس تراب الغيطان
المحترق المشور بأوراق الذرة الجافة.

ينحن على قبور الآلام البائدة، كأنما بحنان، ثم يقمن لحظة،
شواهد مائلات في فضاء سحيق خاو، ثم تنهار أحجارهن.
شعرهن الوحف كثيف تغوص فيه الأيام القديمة وتعود.
لأشواقى أجنحة طويلة تتماس وتتراكب وتتقاضن، لحمها غض
وقوي متهاك.

يدرن الآن حولي في حلقة مقفلة، وجوههن زنجية الشفاه، تأود
أردافهن حاد السرعة متلهف خاطف التحولات، ثم هورضي ساج
يكاد يكون صامت الرققة.

طيور العشق راسية في وسط الحلقة، جائمة، ثابتة، ثقيلة
كالصخر وصافية العيون كالماء، ومتقدة الأحشاء.

ثم وجدت أن شجرة البانسيانا الضخمة الوارفة التي تقتحم شرفة
البيت القديم وتغرقه بغصونها العريضة المثقلة، تحترق.

النار ساطعة ولامعة ولها وشيش وصوت مغرد.

النار على أطراف الشجرة فقط، تنقد في شعل دائرية صغيرة
ملمومة على نفسها.

أصبَّ عليها الماء بسطل أحمر من البلاستيك كنت وجدته على ذلك
الشاطئ في حلمي الآخر.

كنت قد طلبت المطاق لكنها لا تجيء.

المياه القليلة تسقط على جدار البيت الذي سخن الآن من النار،
أحسَّ وقده تصعد إليّ. المياه لن تكفي للإطفاء، النار سوف تمتدّ
وشيكاً وتلحق ببقية الشجرة وتدخل إليّ من الشرفة وتنفذ إلى داخل
البيت. ماذا أفعل؟ ماذا أفعل؟ هسيس صوت النار لا يكفّ،
والغريب أنها ما زالت مضمومة في كريات مدوّرة متلظية باللهب
حول أطراف الغصون فقط، كأنها شرابيب مشتعلة على صفائر
البنات المهترئة الطويلة. صوتها، صوتها ملع بثباتٍ وأطرادٍ وصوتها
هو وحده يعلو. تقترب، بنذيرٍ لا يطاق.

قلت، أصاحبُ سيدي الجنيد وأمشي على خطاه: إنني مكثتُ فترة
وكأنما السماء والأرض تبكيان لحيرتي وحبّبي. وحمائم أشواقٍ تطير
عني. ثم أصبحتُ وكأنما أحترق من غيبتها في. وهأنذا الآن
أسكت. لا أقول شيئاً بعد عن البكاء ولا عن الحريق. ولا يبقى لي
إلا الموتُ الثاني، يقينُ العطش.

١٤ ميسرى ١٧٠٥

٢٠ أغسطس ١٩٨٩

محطة السكة الحديد

(١)

كانت خبطات القطار المنتظمة الرثيية قد اتحمت نفسه، بدقاتها المستمرة. لا تتوقف، لا تتريث، تتقدم دون وهن في تصميم دائب يأكل من نفسه امتدادات طويلة، في طريق لا ينتهي. وكان قد نام قليلاً، وشبعت دماؤه، في تهويم النعاس، من هذا الدق المتواصل. وبه شيء كأنه سكر وخدر من هذه الضربات العنيدة التي لا تني، مدفوعة إلى الأمام، في عزم لن يقف أمامه شيء.

وفتح نافذة القطار، وأفلت لحظة من الضوء المصفر المترب الذي يسقط في العربة المزدحمة، يهتز كسائل كثيف مشبع بانسانية متعبة هدتها هزات الرحلة المتعاقبة. وهبت عليه من الخارج ريح الاسكندرية الممدودة أمامه تحت سماء الليل، والقطار يهتز مندفعاً يدق الأرض إليها في مجهود أخير. وأنوار الاسكندرية تومض مرمية على انحناءة خط طويل، واعدة بأمان غامضة، براحة الوصول ودفء المدينة. ونسمة خفيفة ملحة هينة تأتيه عبر الخلاء المعشوشب بالحشائش الصحراوية الطويلة، فيها عزاء يفسح له الصدر، ويقبل طراوته.

عاد إن مقعده، وكان يجيم على العربة جو ثقيل مكتوم، وقد خلع

العسكري الضخم الذي تكوم أمامه في سترته السوداء، طربوشه واكتفى بطاقيته الميري من العبك الباهت تشد ما بقي من شعر شائك رمادي خشن على صلعته المتينة، وقد سكت الطفل الذي يلتصق ببطن أمه في ملاءتها الريفية وراح الآن يمصر ثدياً جافاً مهدلاً مجدداً لا تكاد الملاءة تخفي بذاءته، وما زال بائع السوداني يمر بالقطار، حاملاً قفّته وقراطسيه الملائنة، والشيخ الأعمى الذي يبيع النعناع وآيات القرآن وعدية يس، والعيال العفاريت الذين هدهم التعب وبحث أصواتهم وما زالوا بعد ينتقلون من عربة إلى أخرى في خفة، ينظّون وينادون على الليمون للعطشان والكاكولا والبيس، ويقرقعون على الجرادل المليئة بالماء والزجاجات. وقد سقطت الرؤوس على المقاعد الخشبية في استسلام كأنها لم تعد ملكاً لأصحابها بل أصبحت ملكاً لقطار يدق بهم الأرض في تصميم، إلى غاية لن يبلغها أبداً.

تعبت عيناه من النور المسلول الشاحب المعلق كالتراب في القطار المهتز إلى الأمام بسرعة لا تتناقص، وهو يكاد يسمع مصمصمة شفتي الولد الذي يرضع من بز ناشف، وتنداح في نفسه رغبة في أن يعطي من نفسه لهذه العلقة الانسانية الصغيرة التي ما تني تتطلب الحياة، رغبة حنانة كأن نفسه قد ذابت في وسط هذا الجمع من الناس، وامتزجت بهم من الخارج، بعصارتها الثقيلة. أذابتهم معاً تلك الساعات الطويلة التي قضوها في القطار فكأنهم ألصق من الإخوة: الأفندي الرث الذي يجلس إلى جانبه مع حقيته القديمة المربوطة بخيط، فلا شك أن قفلها قد خرب. وحتى العسكري الذي يشخر فجأة في نومته المليئة، ويتنحج من كرشه، ويعدل من جلسته القلقة على خشب الكرسي. وهذه الأم الريفية الأصل بشبابها ومدورتها

البلدية على عظام وجه مرهف بشهوات حادة لا رضاء فيها، بل هي لهفة ثابتة لم تعرف الشبع قط، حتى مع الولد. والصعايدة والفلاحين الراجعين إلى المدينة وقد خفت الحياة قبضتها عليهم لفترة الرحلة القصيرة، ولكنها تركت آثار هذه القبضة القاسية على الوجوه الخشنة العميقة الأخاديد، على الذقون النامية الشائكة لم تحلق بعد، والثياب الرثة غير النظيفة تماماً على أجسام مفتولة أو منحولة، لا تكاد تمت هذه الثياب إلى أجسام أصحابها بصلة، كأنها ملقاة عليها، غريبة، غير مستقرة، وغير متصلة بها. واحتدامات هذه الأجسام قد همدت لحظة، والهواء يدخل من الأفق الصحراوي المنتهي إلى البحر، وينفذ في زهومة الكثافة الانسانية في القطار، فيكملها ويعطيها معنى غير واضح.

خفت سرعة القطار وتغايرت أنغام دقاته وهو يصطفق بالشبكات الحديدية من القضبان ويمر تحت علامات متباينة في أعمدة السيمافور، والبيوت تجري إلى جانبه. وفي العربة نشاط فجائي والقفف تنزل من على الرفوف، والحقائب والملاحف والمراتب واللفائف المربوطة في الخيش، والمرأة الريفية ترفع طفلها إلى كتفها فيستأنف صراخه وتطلب من الأفندي الرث المنهوك أن ينزل لها القفص والقفة يافندي وحياة النبي، فينشط وهو ينزل الأحمال الثقيلة ويترنح تحتها وهو يكاد يقع فيلتصق بالمرأة، عن غير عمد، في مجهوده، ويطيب له هذا الالتصاق لحظة من زمن، والعسكري يشد حزامه ويتنخم في منديله الأحمر الباهت ويضع طربوشه على الطاوية الميري العبك. والناس يقومون ويتزحزحون ويفتحون الشبابيك ويقفون استعداداً

للتزول وعلى شفاههم ابتسامات متعبة، ويلغظون مع بعضهم البعض في شيء كأنه فرح طفلي بالوصول.

أخذ القطار يبطيء أخيراً وهو يدخل المحطة المنيرة، ويصفر فجأة تحت السقوف الزجاجية المرتفعة في دوي مظفر، ويقرقع ويصلصل وهو يقف في فخامة، كجواد أصيل يرفع رأسه عند الوقوف، وتقاطرت جماعات الشبالين بأرديتهم الزرقاء وأحزمتهم الجلدية العريضة المتينة، يمدون أيديهم إلى النوافذ ويتلقفون رزقهم من القفف والشنط، وصفار الصبية خلفهم يتزاحمون على الأفندية والسيدات ويشدون حقائبهم: شبال، شبال، والناس يسرعون في الأضواء اللامعة. وأصداء القطارات تتردد في المحطة كأصوات تتنادى في رنين مثير.

وهو يتزل إلى الرصيف ويستعيد مقدرة ساقيه على المشي بعد الخدر الطويل، ويجد أمامه من بعيد ركاب البولمان والدرجة الأولى في أناقتهم الملونة وحقائبهم الجديدة الرشيقة يسرعون خارجين، وخلفهم يهرول الجمع المختلط من الانسانية الصغرى المضطربة بين الأولاد الصالحين من نومهم يتعلقون بأبائهم وأقربائهم، وهو يحس المدينة خارج المحطة بشوارعها الهادئة الخالية تقريباً، مستريحة آمنة، مضيافة.

اتخذ طريقه إلى سلم النفق الأرضي للخروج بعيداً عن الزحمة على الباب الضيق، أو هكذا علل لنفسه سلوكه، وإن كان قد دار بذهنه، من بعيد، أن النفق لا يفضي إلى الباب، بل إلى رصيف آخر. لكنه لم يصغ لهذا الصوت الصغير البعيد.

ونشق على السلام العريضة ريحاً باردة أرضية، من النفق المنير الخالي، والبلاط الأبيض يلمع على حائطي السلم، مصقولاً ينزلق عليه النور كما ينزلق ماء خفيف رائق. وهو إذ ينزل وحده على الدرجات العريضة يحس أنه يدخل على عالم آخر هادئ، تتجاوب به أصداء بعيدة متطاولة في الفراغ الأجوف، وتتراشق الجدران الملساء بهذه الأضواء ترسلها الواحدة منها إلى الأخرى إذ ترتد عن سطوحها الناعمة، عبر مسافات خاوية. وهو يحس سعادة غريبة توسع من صدره، لأنه وحده في هذا العالم السفلي المضيء المحدد الجوانب، المنسرح تحت الأرض في مستوى آخر.

وفجأة امتلأ عليه هذا العالم، في فراغه. وأحس شيئاً وراءه، خطوة خفيفة مسترقة، نغمة، نفحة هواء، لا يدري. ولكن هناك حضوراً يترصد به من خلفه، لا شك، شيئاً يرقبه، كأنه يرصده بعينه الخفيتين، وينتظر حتى يوقع به، حتى يطبق عليه. وأحس قدميه تتجمدان تحته، ونظره ثابت موجه إلى الأمام، وهو لا يجرؤ على النظر إلى خلفه، بل لا يستطيع. ينزل السلام ببطء، ويشعر بهذا الغريب يسوده من أعلى السلم، وراءه. وهو يريد أن يتحقق من هذا الذي يثقب ظهره ببصره، ولا يستطيع، بل لا يجد أدنى قوة على رد بصره إلى الخلف. والسلم خلفه خاو عريض مرتفع صاعد إلى أعلى، تنزل منه رياح الخوف. وهو موقن بأنه مراقب، بأنه واقع في قبضة بصر ذي نوايا، ولا يستطيع أن يخرج من هذه الشبكة غير المرئية.

واستدار فجأة إذ وصل إلى أرض النفق، وداراه الحائط، ودخل في النفق الطويل الممتد. وأحس أمناً وروحاً، إذ أفلت من هذه العين

الواقعة عليه، تنفذ إلى كيانه من الخلف، في تصميم غرضها الذي لا يجيد.

والمصابيح الكهربائية القوية تملأ المر بنور ساطع على الأرض السوداء، والحيطان تقوم على جانبيه ببلاطها الأبيض الناعم، صقيلة لزجة، لا يلصق بها شيء.

وأخذ يحث خطاه، وقد استشعر حريره من هذه النية التي كانت تحرق به، وأحس انفساحاً أمامه في النفق المنير الطويل الواسع الجنبات المفتوح عن سلام جانبية متعاقبة كثيرة.

وأخذت عيناه بالقرب من نهاية النفق، تحت مصباح كهربى، شيئاً مختلطاً متلاصقاً، كائناً فيه من البشر شيء، لولا أنه أكثر من كائن بشري. تسقط عليه من المصباح حزمة مخروطية ساطعة من نور لا يرحم، وقد اختلطت فيه الأذرع بالأكتاف، تحيط ببعضها البعض، وضاعت فيها رأسان، في امتزاج غامض المعالم، بين كتفين ملتصقتين، واختفت العيون في حمى ظلام داخلي خاص مسدود على نفسه، تحت عين مفتوحة من المصباح الكهربى المثبت فوقها، ينصب منها نور صلب ثابت الحدقة، وقد جمدت الثياب الرثة المضطربة، وسكن كل شيء، سكون مرعى من العشب الناعم الرقيق به هياكل ونصب عريضة، تعاقبت عليها عواطف حارة متربصة، وليال صافية من الوحشة، ولانهاية من سماوات الظهر الخالية.

وقد أوقعه هذا الكائن في فتنة لا زمن فيها، وهو يتجه إليه كالمأخوذ، كأنه يطيع مصيره في هذا النفق الساطع تحت الأرض تتجاوب فيه أصدااء ليست من العالم وإن كانت توحى بمعناه الخفي.

وترن خطواته في فراغ النفق، وهذا الشيء الذي يلتصق بالحائط الأبيض اللزج يتحدد وتتضح معالمه.

ولكنه لم يستطع أن يحول بصره عنها، هذه الطفلة وشيال نحيل ضئيل عنيد الوجه، وما زالت بيدها المرمية على ظهره أوراق يانصيب قديمة يجمعها مشبك حديدي صديء، وثيابها السوداء الباهتة الخالقة تتجمع في طيات مضطربة تحجرت كأنها من تمثال أثري قديم مصقول الحجر، يقف في نشوة غائبة. ويدها مرمية بلا حياة على قميصه الكاكي المشعث القديم، على ظهر جاف انحنت عظامه كأنما نضب منه ماء الحياة، يتحدى الجفاف في تضحية حانية. وهما يلتصقان ببلاط الجدار الأبيض، كأنها علقتان جافتان لا تصلان أبداً إلى الدم الذي تبحثان عنه. ولا شيء يعنيهما، فكأنه لم يمر بهما، والرؤوس مختلطة المعالم، مدفونة في رائحة الشعر الملبد الكثيف بين قماش الثياب القديمة المترابكة الرقع في جمود منسي، لا يهتم بأحد ولا يعنى به أحد، ويسطع عليه نور وحشي لا ادراك فيه.

وارتقى درجات السلم إلى رصيف المحطة، وفي جوفه فراغ متداعي الجنبات، والأرصفة خاوية تمتد بينها القضبان آتية من أبعاد سحيقة، في خطوطها الرفيعة المتجاورة المتشابكة، بين تيه من الأعمدة والاشارات. والقطارات في الباحة تحت سماء الليل الباهت، ساكنة صامتة مظلمة، كحشرات ميتة بيضاء مغبرة البياض منسية، والقطارات ملتصقة بالأرصفة، عليها تراب الليل تحت السقف الزجاجي المسود من الهباب، والمحطة كلها ساكنة نائمة، وقد هدأت فيها الحركة هدوءاً غريباً، ساعاتها تحرق إليه بعقاربها التي توقفت، والأسوار الحديدية القصيرة تحيط به، وصوت حشرة ليلية يتردد صغيراً

من أحواض الزهر الغامضة في الليل، تحت السور الحجري القديم،
وجرس الترام يرن بعيداً من شارع المحطة في الخارج، كأنه يسير
وحده بلا ركاب في شوارع مدينة أقفرت من كل ساكنيها.
وأحس نفسه محبوساً، مخنوقاً، مضيقاً عليه.

يجب أن يفلت إذن، يجب أن يخرج، يجب أن ينطلق من بين هذه
القضبان، يجب أن ينتزع نفسه من تحت هذا السقف الزجاجي، ومن
نظرات هذه الساعات الواقفة، يجب أن يخلص نفسه، أن يخرج من
الباب.

واندفع يجري بالرغم منه، لا يملك نفسه، صغيراً في هذا الفراغ
الليلي، نحو باب الرصيف.

وجابه على الباب الصغير ثلاثة، أربعة، خمسة، من عمال المحطة
جالسين ينظرون إليه في هدوء متربص، يسدون عليه المخرج
ينتظرون منه تذكرة السفر. فلن يخرج إلا ومعه التذكرة.

وهبط قلبه في حفرة لا قرار لها، وقد تيقن دفعة واحدة أن ليس
لديه هذه التذكرة. لن يخرج إذن، لن يستطيع الخلاص. فليس لديه
تذكرة. وهذه الوجوه الخشنة الغليظة القريبة تحديق إليه بعيونها المدورة
الجاحظة، وغضونها الجافة السمراء، وكلهم لم يخلقوا ذقونهم هذه
الشائكة. هذه الوجوه لا يهمها من هو، ولا تعرفه ولا يعنيه شيء إلا
أن تنال التذكرة. وحللهم الرسمية السوداء - ولعلها زرقاء قائمة -
تصطف عليها أزرار نحاسية كابية، كأنها صفوف أخرى من العيون
المعدنية تنظر إليه، وتنتظر.

وقفل راجعاً يجري، يجري كأن حياته كلها في خطر، كل لحظة يقضيها

الآن في المحطة تزيد من هول جريمته، تثبت إدانته، وتقرب لحظة الحكم عليه. لن يغتفر له، لن يغتفر له أن ليس لديه تذكرة. يجب أن يهرب، يجب أن يفلت، الآن.

وهو يجري كما لم يجر أبداً في حياته، والمحطة واسعة فسيحة خاوية، ليس فيها شيء عداه، يحاول الافلات بنفسه، والأرصفة تمتد تحت قدميه، كأنها تتخلق وتمدد خاصة له، كأنها طريق لم يوجد إلا لأنه يجري عليه، بل هي توجد من لحظة إلى لحظة، تحت قدميه. وفي كل اتجاه يندفع إليه يجد نفسه على الرصيف الضيق نفسه، والقضبان نفسها تحت الرصيف، والأرصفة الأخرى نفسها تحاذيه، أينما اتجه، تتمدد حوالبه. وإذا يقرب من باب الدرجة الأولى، وقد بدا له من بعيد خالياً، يجد أمامه الوجوه نفسها، والعيون نفسها تحديق إليه، تنتظره، في غير اهتمام كبير، ولكن في تصميم، لن يخرج أبداً إلا إذا قدم التذكرة، أبداً. وليس معه تذكرة.

وهذه الحمى من الجري لا تنتهي، وقدماه المندفعتان أبداً إلى الأمام، تحملانه مرة أخرى إلى رصيف الدرجة الأولى، وهو يتعثر، ولكنه يطير في جريه، كأن هذا الحجر الذي يكاد يتعثر به قد تطاير تحت قدميه فجأة، ولم يعد فيه عائق ما، كأنه قد احترقه دون عناء. ويصل أخيراً ينهج، ويمسك بالسور الحديدي القصير، وعيناه معلقتان بتلك الوجوه على الباب، ويتعلق بحاجزه الرقيق المهتز، يتعلق به كأنه لن يفلته قط، في عنف واصرار، ويداه قد تشبها بالحديد الهزيل، واندجتا فيه، وأصبحتا قطعة منه لا تنفصل عنه. وهو يحدق إلى ساحة المحطة الخارجية، لكنه لن يستطيع أن يتجاوز هذا السور، وهذه الوجوه قد اتجهت إليه، صامته فاهمة تنظر إليه من

غضونها الخشنة، بذقون غير حلقة كامدة الزرقة، شائكة.

وأحس القطار يصفر وقد وصل من رحلة بعيدة، والأنوار فرحة بهيجة قد غمرت المحطة كلها، والساعات تدور، والناس يتدافعون ويتزاحمون في انفعال الوصول، وهو يتعلق بيد أمه ينزل من القطار في زحمة الناس، ويرفع إليها وجهه وقد تعب من رحلته، وماجه وأسعده انتهاءها. وأبنية المحطة الكبيرة عالية تتجاوب بطنين الكلام والضحكات وصفير القطار وقلقلة العجلات، ويسمع صيحات الشياطين وجريهم بين الناس في الزحمة، وأبواق التاكسيات تملأ الساحة الخارجية الفسيحة بلجاجة ندائها، والحناطير تتقارب وتتزاحم وتقطع الطريق أمام بعضها البعض، والساحة الممتلئة بالناس الخارجين تسبح في الضوء الباهر المريح بعد شحوب القطار.

وتلفت خلفه فجأة، وقد تقبض حلقه من المفاجأة، والخوف. لقد ضاع، تاه. وهو لا يجد أمه إلى جانبه. لقد فقدتها في الزحمة. والناس يخرجون متتابعين، سيل لا ينقطع من الناس الغرباء. وهو وحيد صغير. لا يعرف الطريق إلى البيت. لا يعرف الشارع. لن يصل أبداً إلى البيت. لن يجد أمه ولا أخواته.

ورجع جارياً يتخبط في سيقان الناس المندفعين إلى الخارج، ويتلفت من بينهم. وقد أخرسته المفاجأة ولم يستطع أن يصرخ. وهو يريد أن ينادى. أن يزعق. أن يجده أحد. أن يجد أحداً. لكن أحداً لا يصغي إليه. أحداً لا يعرفه. وهو لا يعرف أحداً. وقد ضاعت منه أمه. فقدتها. ولن يعرف الطريق أبداً. سيتوه إلى الأبد في هذه المدينة الرهيبة الغامضة التي توجد خارج المحطة. سيتوه بين الترام

والعربات والسيارات والناس . ستخبط به الشوارع الطويلة المخيفة التي لا يعرف أسماءها . ستوالى عليه جدران البيوت . كلها غريبة . كلها صامته . كلها مجهولة . ولن يعرف بيته أبداً .

وكم هو ضئيل في زحمة كل هؤلاء الناس . صغير . تائه .

وأحس العرق السخن يغطي وجهه ، ويد الخوف تمتد إلى داخل صدره وتقبض على قلبه ، والضياح يحدق بنفسه الطفلة . وقد فقد كل شيء .

وهو يجري متخبطاً بالناس لا يرى شيئاً من خلال الدموع السخنة التي تملأ عينيه . وهو لا يعرف إن كان يصرخ فعلاً فإنه لا يسمع شيئاً . لكنه يحس نفسه يصرخ منادياً أمه . ويضيع صوته في دبدبة الأرجل التي لا تنتهي ، متابعة خارجة من المحطة ، ليس بينها أحد يتعرف عليه . يحس نفسه يصرخ بملء روجه المتطلبة حبها المفقود ، يدعو يداً تمتد إليه بالأمن والإلفة ، يصرخ منادياً من وحشة الضياح المقفر الذي يحيط به في امتدادات معتمة لا آخر لها . وينهج من الجري والرهبة والبحث عن الخلاص . يصرخ ولا يعرف هل يسمع صرخته أحد ، بين كل هؤلاء الناس . يجري في وحشة الضياح . لا يفتأ ينادي .

كانت دقات القطار الرتبية قد اتخمت نفسه . كل شيء قد انحصر الآن في هذه العربة التي تهدر وتهتز . أمواج ضجيج القطار الآلية تصطدم وتتقلب في ايقاع رتيب محسوب تحكمه قوة غير عقلية . دقات من كتل الصوت الصلبة ترتطم بأجسام الصخور الناعمة الرملية . والعربة المكتظة بالناس محصورة بين ضربات الحديد المتشابكة تعجنها وتغوص في لحمها وتدفعها دون أن تهن ، في هدير الصدمات المتقاطعة المتراوحة ، أبدأ إلى الأمام .

تملأ في الزحمة ، وضغط براحة يده المبسوطة على زجاج النافذة المغسول بماء آثار تراب جاف وذرات رمل بيضاء مغبرة في الأركان . وقاومه الزجاج ، لا ينزلق في مجراه الخشن الصدى ، ثم أفلت منه فجأة ينزل ، ووقع ، سكيناً مثلومة تهوي إلى قاع قلبه في خبطة مكتومة . واندفع الهواء الحار ، وصفا سطح السماء المعدنية التي تطبق على الأفق ، ودار القطار أمامه في انحناء ضيقة ، جلجلة عجلاته شرثرة دؤوب مختلطة الحوار ، مصممة ، لا تنقطع ، في الصمت الخارجي ، على قضبان هشة رقيقة ممدودة كالأسلاك ، فوق الجسر المرتفع . أثر جرح متورم على خد الصحراء الجاف .

استدار، يتعثّر في السبت المملوء المقبب المغطى بملاءة سرير غير نظيفة مربوطة بحبل غسيل مشعث، وخصوص السبت يحز في ساقيه اللتين لا تستقيمان من ضيق المكان. وعندما أسقط جسمه، محشوراً، ليجلس، كان جاره قد استراح قليلاً في جلسته، وأتاح لعظامه العجوز أن تنفرد قليلاً تحت جلبابه الأبيض الفضفاض الذي يسف طرفه تراب أرضية العربة، فلم يكذ يستطيع أن ينزلق على ألواح خشب مقعده حتى أوشكت كتفه أن تحتك بالوجه العظمى الشيخ الذي تهدل جلده في طيات مستسلمة، ولكن عنيدة، وصلبة.

- خد راحتك يا بني. لا مؤاخذة آدي أنت شايف، نستحمل بعض ساعة زمن.

كانت العينان الترابيتان المحفورتان مثبتتين عليه، ابرتين طويلتين، مغروزتين في عريه النىء الخام، تأتي من ورائها عينان أخريان، كأنهما هما مرة أخرى، من وجه حفيد الشيخ الذي يلتصق به، في كره، على خشب المقعد، هو حفيده بلا شك: خطوط الوجه نفسها، فجة، بريئة، لم تقع عليها بعد صدمات تلين من بدائيتها الأولية أو تقسيها، ولكن هاتين العينين فيها رفض، لا مبالاة، أو استهتار. والولد قد اتسخت فانلته المقورة القصيرة الكمين، وأمسك بحذائه، من غير جراب، في يده، ووضع رجليه الهزيلتين، احدهما تحت الأخرى، على خشب المقعد، قائمتي طائر «أبيس» مرميتين بعيداً عن الماء، في لباسه الطويل البفته الذي يصل إلى الركبتين. هذه ملابس الرياضة في مدرسته، وزينته في السفر والفسحة والعيد والمناسبات؟

أحس العرق الخفيف على وجهه يسفعه هواء الغروب الذي يهبط من السماء على الصحراء الخالية.

في صدره الحجر المشع الساطع، نجمه الصلب الشفاف، يقطع
الظلمة في داخله بألف سكين باردة كالبلسم. في بؤرته المتقدة مركز
ثقل الكون، سر التوازن والعقل. حوله مدار الحلقة المتوهجة التي
تغني فيها موسيقى فلكية.

ووحل ذهنه في حسابات الحلقة، دون أن ينتبه لتغير مراكز الثقل
في وعيه، واجراءات العقد، ومصاريف علب الملابس، وارسال آخر
بطاقات الدعوة، وترتيبات العشاء والسهرة.

ويدها الرخصة السمراء الطويلة الأصابع عصفور وديع، ودقيق،
وسخن، يحس رجفات نبضه بالخوف، يكاد يكون عارياً، في يده.

الصبح استلم الدبيلتين الذهب من الجواهرجي، وبارك له الرجل
بابتسامة زيتية غائبة.

كان منقوشاً عليها التاريخ. غداً يبدأ دوران الكون بعد جمود وقفة
لا تاريخ لها.

من على البعد مراوح الأبار تدور على أبراجها المخروطية العالية
الرقيقة الأسلاك، تشق لنفسها دوائر في الزرقة الصدئة. وتحتها بيوت
من حجر أبيض مكسورة الجدران، وخيام الأعراب الواطئة مطبقة
على الأرض، قائمة بقدارة عتيقة، ممزقة مرتوقة بألف رتق، وشجيرات
التين القميئة الناصلة الترابية تتناثر في أرض صفراء، كابية مضلعة
بأحجار غير منتظمة ورمل متصلب.

وعندما استدار القطار من جديد، تثبت ثلاثة جنود أو أربعة،
ينامون على أرفف العفش العلوية، بالخافة الخشبية، بحركة غير
مقصودة في نومهم، اسندوا رؤوسهم الحليقة إلى أيديهم المكومة،

وأحذيتهم السوداء الضخمة، عليها طبقة رمل باهتة، تكاد تصطدم بسقف العربة، بين القفف والحقائب واللفف والصرر والسلال. المصابيح في السقف عيون حافظة، زرقاء متورمة منطفئة، يسيل نورها الشحيح على النباتات الانسانية المصوحة، تحت جفاف الرمل الكابي، في حبس مشتل ساخن معدني يصطفق بلقي مثير عنيد.

أرتفع، فوق ضجة العجلات التي لا تهدأ، صراخ طفل، محرق لا ينقطع، من المقعد المواجه. والمرأة لا تني تردد بصوت آلي، متعب، كأنها لا تلقي بالألما تقول ولا تعلق عليه أملاً ولا تنتظر نتيجة: طب بس يا واد اسكت بقى طب بس يا واد اسكت بقى، بملابسها السوداء الضافية، النازلة حتى حذائها الرجالي، وشعرها المغسول الأسود تحت المدورة الزرقاء، ووجهها النحيل الصافي، وهي تنظر إليه، تقيسه وتزنه وتبلو معدنه، برغبة حادة مباشرة، بلا استعطاف ولا غواية، في داخل خرافة خاصة بها لا تحقيق لها.

وما زال الأفندي أبو جاكته وجلابية، حتى في نور المغرب المتهافت الخابي، يحسب ويضرب ويجمع وي طرح، في مذكرته الصغيرة، ويبل طرف القلم الكويبا بلسانه، بحركة محتاطة تكاد تكون مرفهة متشاخه، ويتمتم بأرقام محدودة العدد ولكن لا نهاية لها فيما يبدو، لا شأن له بأحد ولا بشيء في كابوسه الضيق الخاص المحسوب.

والست المترهلة اللحم، أم فستان مشجر وطرحه مقموطة على جبهتها المدورة العرقانة، تمص حبوب اليوسفندي بشفتين مطبقتين شرهتين، وتلقي بالقشرة إلى الأرض وعلى اللفف والسلال، وتقذف بالبذور من فمها الباهت المسدود، فيقع متناثراً على ملابس الناس

وأرجلهم وعلى الشنط والمراتب المدورة المحزومة بالحبال والخيوط .

من ورائه وإلى جانبه وحواليه الوجوه التي خدرتها ضجة السفر، والعيون المطاردة الهاربة إلى كهوف محاجرها، والأفواه الفاغرة تتشاب بلا خجل وتنطبق، والعظام الحادة المرهفة المفاصل، واللحم المتكفىء على طياته تحت الجلايب والعمم والشيلان والطواقي والقمصان الأمريكاني المخططة والملونة والبطلونات الرمادي والكاكي المتهدلة ورائحة الحصار والرمال الجافة ووحشة مغيب الشمس . وهو غارق في هذا الموج منهم، ليس طحلباً بل جذوره ضاربة في صخرهم، لا انتزاع لها .

هي ساعة زمن ونصل . أبدأ، ما زال أمامنا سفر لا ينتهي .

عندما أفلتت عيناه من أسر العربة التي تغص بحياتها الكثيفة المتخثرة كان القطار قد دخل إلى حيث دفنت الشمس نفسها وراء امتدادات الملح الجاف الفضي، والقضبان أمامه تشق الفراغ : خيطين معدنيين على صفحة مياه قليلة الغور، بها أمواج صغيرة متلاحقة هي رصاص بارد ذائب يترقق الهواء قليلاً في قوامه الثقيل . وينبسط الماء، بعيداً إلى الجانبين، تحت عجلات العربات الحديدية المندفعة في صخبها المصمت المتلاطم يلدق نفسه بلا هوادة . أحراش البوص الكثيفة تغوص شيئاً فشيئاً في الطين القريب تحت طبقة الماء المعدني الراكد المتعفن، وتهب عليه الرائحة .

رائحة التحلل النباتي العتيق الزخم، عضوية، فاسدة، عطنة، خمت بها أنفاسه، ترفضها وتنشقها رغماً عنك، تأتي من تحت جلد الطحلب الأخضر المجعد، جلد امرأة عجوز متصابية، مدهون بزيت

زنخ، تلبدت طياته فوق سيولة الماء القليلة تنكسر طبقتة هنا، هنا، وهناك، فيلوح تحتها الماء الساكن والطين الرخراخ، ثم تتجمع، تحت جدار العربة المنطلقة، في دغلات ملتفة شرسة ضاغطة من الخضرة القائمة الزلقة الملمس. والرائحة تعنف به، وتفوح في سطوع عفتها الذي لا يطاق، من تحت عجينة الطين المشبعة بنضح الدسم، من تحلل المخلفات العضوية، طوال أزمان سحيقة. تضرب فيها الشمس ويتخللها الماء وينصب فيها لحم النبات الأخضر يموت على مهل في قبوره المائية المفتوحة، وتتراكم جثته الفاسدة واحدة فوق الأخرى وتتكدس، مكشوفة بذبته، تنفث عطنها الكثيف بلا نهاية، من تحت مرآة مائية مغمضة الأسارير تعكس صخر السماء البرونزية.

- يوه... ما تقفلوا الشباك ده يا خواتي!

هذه المرأة الأم كأنها قطة بعينها الحادثين اللتين لا تعرفان إلا وفاء لشهوتها أبداً، ألا اخاء لابنها قط.

وضحك الشيخ عن فم ككهف لحمي قاتم الحمرة، وهو يهز ذراعه الضاوية في الكم الأبيض الفضفاض.

- معها حج يا بني... بالطيف!

ووقف مرة أخرى، يقبض على الحافة الخشبية السوداء من دسامة قديمة جفت وتصلبت وتركتها أيد كثيرة ناضحة في شهوة القبض والتصرف، ويجهد أن يرفع زجاج النافذة من مخبئه فيستعصي عليه، أمكلف هو برعاية الفتحة التي ينصب منها العالم الشرس على سكان هذه العربة؟ من كلفه؟ ولماذا؟

ومن وراء الزجاج المسدود بدا له ظل القطار بعرباته القليلة، وقد

أضواء مصابيح الزرقاء، ينعكس غائراً، مهتز الأنوار، في عمق
المياه التي لم يعد لها في العتمة غور مستين، وقوارب الصيادين الرفيعة
المستدقة الأطراف، مهجورة، بالية، خشبها مفكك عاري الألياف،
مائلة وراقدة على الطين القريب بين رققة طبقة الماء النحيلة المتخثرة
بالفساد. وفي آخر مجد نور المغيب أخذت تتوالى، تحت عينيه
المجهدتين، نباتات ورد النيل الخضراء اليانعة، تحت القضبان
الحديدية، وسط موجة واحدة رحراح من المياه الممتدة. والنباتات
الكثثة تلمع غضة، زيتية، ملفوفة، ساطعة بنور دسم مشع كثيف،
وحشية بصمت، تستمد حياتها الضارية من العفن المتخثر. كانت
العربة مغلقة على زرقة أنوارها المتهافئة، والمساء يزحف من الخارج،
غراً بلا صوت، في رائحته بقية عطن متراخ مستريح.

عيناها السوداءوان بثر ماء حلوة بلا قرار، لا يعرف سرها. ترتفعان
إليه من ضجيج دقات الآلات الكاتبة ورنين التليفونات وصخب
المكاتب الملهوف السريع وحفيف الأقدام والأوراق في عمرات الشركة
ومسالكها المفتوحة ومنصات الرخامية اللامعة وحواجزها الزجاجية،
بينها هو في صحرائه الفسيحة المغلقة عليه، شعرها جدائل نخلة
سامقة ناحلة الرشاقة ناعمة الجذع، وفي صدره المساسة الباردة تومض
بنارها المحبوسة داخلها، أبدأ، الحجر الرقيق يسطع باستمرار في نواة
ليله. غداً لن تنطفىء شمس المساسة.

ومرة أخرى عاد إلى الجلوس في مقعده الذي زحمه الشيخ، وقد
اتجهت عيناه بصمت جامد إلى المرأة أمامه، وصراخ ابنها يأتي، محرقاً
ما يزال، يملاً ضجيج العربة، ولكن مكتوماً، صادراً من بين جدران
جلدية مبطنة، يحس اهتزازها في داخله.

وتجمد في جلسته، لحظة ليست من الزمن، وثبتت عيناه إلى ساقبي
الولد الناحلتين في فم يمضغ رغيف ذرة مبلولاً، القدمان الصغيرتان
بما عليهما من تراب الطريق، تغيبان، وتنطويان، ويدها تمتد إليه من
جديد، والصرخة نفسها ما زالت محبوسة، والرأس الصغير ينطوي
ويغيب في الظلام، لقمة وراء لقمة. للعيش المرحرح المبلول صوت
تكسر عظام الجمجمة والضلوع، تنطبق عليها شفتان جافتان
جائعتان، وقد انحسر ثوبها الأسود عن فخذ سمراء ممصوفة،
فاجرة، تبدو للعينين كأنها سخنة الملمس، في رقة عظمها الحادة، لا
ينطفئ جوعها، وما زالت تكرر في صوت آلي لا أمل فيه: طب بس
يا واد، اسكت بقى، طب بس، والولد عيناه لا تفهمان، والوجبة
البديئة لا تفرغ، ما زال الولد على فخذها العريانة يصرخ صرخته
المحرقة المتجددة، في طبقة واحدة لا تتغير، منهوشاً ممضوغاً بأسنان
حانية، لا مبالية في حنانها، بينها البقال، أو لعله القومسيونجي،
يحط حساباته المتصلة في النوتة الصغيرة، ويتمتم، بشفتين متحركتين
لا تتوقفان، بأرقام لا آخر لها، والست المليئة أم طرحة مقموفة قد
غاصت عينها الصغيرتان في عجيب وجهها الباهت المتخمر وانطبقت
شفتها في خط رفيع مصمم وإن كان لا أسنان وراءه.

مدّ يده في حركة كأنما تندّ على الرغم منه، كأنما يهّم بأن يوقف هذا
الذي يدور أمامه أو أن يشارك في اقترافه، ولا يباليه أحد: طحن هذه
الوجبة الداعرة الحنون، والمحرمة والمحتومة مع ذلك. ولم تمتد يده،
ولم يتوقف شيء.

الناس يتململون في حركة الاستعداد للوصول، ويقف البعض
ويشقون طريقهم بصعوبة في العربة التي تغمرها العتمة العكرة بنور

مزرق شاحب، وتثقلها رواسب الليل القادم. والجنود يتزلون من على أرفف العفش فتغوص الأحذية السوداء الضخمة وسط لحم القفف وعظام الشنط الهشة اليابسة، وترتفع قاماتهم الكاكي الطويلة الناحلة، في الزحمة المضطربة العتمة، حتى السقف. والعربة مندفة إلى الأمام في دقائقها الحديدية التي أخذت ايقاعاً آخر، أبطأ، وهي ترتطم بمياه الليل الساجية الثابتة القوام.

ومن وراء الزجاج تعاقبت أحراش البوص الأخيرة، الداكنة الزرقة، ومرتفعات الرمل في وسط الماء عليها عربات نقل بعيدة مقلوبة، وبيوت صغيرة من حجر أبيض مظلم، ثم اختفت رقرقة الأمواج، وانفسحت الأرض، وارتفع جسر رملي عليه حرس الأشجار التي ترقب القطار يمر بينها بألف عين مهتزة الأهداب وألف ذراع متهاوية متأرجحة، وجاءت أعمدة السيفافور العالية المسحوبة المتتالية، تصطك ذراعها الواحدة الصلبة لتسمح للقطار بالمرور، وتبرق عينها الكهربائية الواحدة بلونها الأخضر، وتشابك القضبان الحديدية وتتعرج، وتنشعب، وفي العربة جو فرح وقلق، بانفكاك الحصار وانقطاع علاقة اضطرارية، والأم ترفع ابنها إلى كتفها وترفع السبت بيدها الأخرى، والجد يقيم عظامه القوية العجوز وحفيده يلبس حذاءه من غير جراب ويتسلل في لدونة وراء جده، والبقال - أو القومسيونجي - يتشهد ويضع مذكرته في جيب سترته الداخلية، أما هو فقد أنزل حقيبة شركة الطيران القماشية الصغيرة وعليها الحروف اللاتينية البيضاء، ووقف في الزحمة ينتظر. وأنوار المحطة تتخايل لهم ثم تهجم عليهم، وإذا بهم في وسط الدقائق المحتضرة العذبة الأخيرة، والقطار يصفر، مستنفداً، تحت السقف الزجاجي

العالي، وتتردد أصدااء الوصول في المحطة للفسيحة الصدر.

الطريق غامض أمامه، ولكنه مفتوح.

عندما نزل من العربة كان سبيل المسافرين قد انحسر وتشربته
البلد، ووجد نفسه على الرصيف الخارجي، تحت سماء الليل.
والقطار قد وقف، وغاضت منه حيويته وانطلاقته، انكمش وجف،
قشرة مفرغة هناك، تحت السقف الزجاجي تهب عليه أنفاس الليل،
والأرصفة المتوازية، في خلاء المحطة المبهم، متعاقبة واحداً بعد
الأخر، تنتهي بانحدارات مائلة نحو الزلط والحصى والرمل وبرك
السولار السوداء اللامعة الخبيثة، وعلى القضبان، بين الأرصفة،
عربات نقل البضائع الحديدية الفارغة، مسطحة مكشوفة، ملقاة
بأذرعتها وأطرافها الناحلة الأسطوانية إلى الأرض، وتحت الأنوار
الخافتة كشك بيع الصحف مسدود مغلق يغطيه نصف اعلان سينما
قديم مقطوع، وبوفيه المحطة بعيداً جداً في أول الرصيف عند باب
الخروج، معزول، يسقط فيه نور أصفر باهت على مقاعد وموائد
مصفوفة بانتظام، خاوية تماماً، عقيمة. ومكاتب المعاون والناظر
والبوليس والتليفون، بأبوابها المتجاورة المفتوحة، كلها عيون معتمة،
على زجاجها قضبان معدنية متقاطعة قائمة من بعيد. وقد جلس
أمامها في نصف العتمة، عسكري ضخم منتفخ في بدلته الصفراء
وأشرطته العريضة الداكنة الحمرة على كفه، أسند بندقيته على
الكرسي، وأدخل ذراعه تحت حملتها، محنياً رأسه على صدره الذي
يهبط ويرتفع بثقل.

الطريق مفتوح. ينزل من آخر الرصيف إلى أرض فناء المحطة،

ويعبر القضبان إلى اليسار، ويمر بين أحواض الزروع والأزهار والشجيرات المدورة تحت السور الحجري الأبيض، فإذا نفذ من كسر في السور خرج مباشرة إلى الشارع الطويل المهجور الهادئ، بجانب المحطة. دقيقتين ويكون في شارع الرصافة ومنه إلى البيت، بدلاً من اللفة الطويلة من باب الخروج. دقيقتين ويخلص.

وارتفعت يده إلى جيبه الداخلي إلى جانب صدره، ثم توقفت لحظة، وقد سطع الرعب في نفسه، وأنار العالم كله بنور وحشي خاطف، ثم انطفأ فجأة.

تجمد في وقفته على آخر الرصيف، ووضع الحقيبة على الأرض، وامتدت يده في حركة سريعة تبحثان في جيوبه جميعاً، بلهفة، وقد بدأ الجنون يزحف ويستأثر، لا يرد، بيقين خفي لا يريد أن يعترف به، يئس كامل ومنكور. لن يجده. يعرف. ضاع. لا. لا. في الحقيبة؟ كيف يمكن أن يكون فيها؟ لا. وانحنى، مع ذلك، وقد غمر وجهه وصدره عرق بارد، عيناه نافذتان معتمتان من الصدمة، والخوف، ومضض القلق الذي لا شفاء منه، ويده تجوس في الحقيبة. لا شيء. لا شيء. البيجاما، عدة الحلاقة، معجون الأسنان، الفوطة، الفرشة، الشيشب، غيار. الكتاب. هذا كل شيء. ولكن الخاتم. الخاتم. فقده. ضاع منه. فقد.

كانت قضبان السكة الحديد تمتد، بين الأرصفة، وتخرج إلى الفناء الخارجي، متشابكة، متجاورة، متقاطعة، لامعة في عتمة الليل بلمعة رصاصية فتية، غضة وقاسية، مدورة في صلابتها، اكتسبت قوة مصقولة مشحونة بطاقة كامنة من اقتران العجلات الضخمة معها، ودورانها عليها، وازدواجها بها، والخطوط الحديدية الملتصقة

بالأرض، الذاهبة على وجهها إلى أبعاد سحيقة تخرج بها من الزمن أيضاً، تشتبك بتراب الأرض وتدفن نفسها فيه، في عناق أخطبوطي محكم لا افلات من قبضة حبه.

لا، يجب أن يجده، لا بد أن يعثر عليه. بذرة حياته نفسها في قلب الحجر الشفاف المشع، من غيرها ثقب في قلبه لا يمتلىء أبداً، وفقد لا عوض له.

وانطلق يجري، مندفعاً في سورة من العمى الباهر، لعله ما زال هناك، وقع منه عندما قام يفتح الشباك، أو يغلقه، انحسر بين المقعد وحائط العربة، لعل العجوز وجده وأخفاه، أو المرأة سرقتة، أو داس عليه الجنود وهشمته الأحذية السوداء الثقيلة، أحالته فتاتاً من تراب أبيض كالملح الخشن الجارح الزوايا، على أرض العربة، بين قشر اليوسفندي ومصاصة القصب. لا، لا، ما زال هناك، أخطأته العيون والأيدي والأحذية، ما زالت صخرته الدقيقة تشع في العتمة بوهجها البريء النقي النقي، تنير الكون كله من مكنها، غير مرئية، بين الحديد والخشب الأسود الكابي وعليه أن يجري، الآن، قبل أن يفوت الأوان، يلحق بالقطار قبل أن يرجع للمخزن أو يعود إلى محطة القيام. وهو ينهج، إذ يقطع المحطة الليلية الخالية، وقدماه تطيران به مع دقائق قلبه الشرسة التي تمسك بكيانه، تعجنه وتهرسه بضربات مطارق حديدية متشابكة. واندفع يعبر القضبان، ويطير الحصى الدقيق والزلط الأبيض تحت قدميه، ويشب فوق البرك الصغيرة السوداء بها حلقات وموجات زيتية قائمة الاخضرار، من الشحم والزفت المترسب بين القضبان وتحتها، وها هو ذا يجري إلى جوار قطار طويل، طويل لا ينتهي، عرباته فارغة، موحشة، متعاقبة، جدرانها

هامدة، شاحبة. بناء منيع يوشك أن ينهدم في أية لحظة، ولكنه متماسك لا ثغرة فيه، لا ينال، ولا ينتهي، ليس هذا قطاره، يريد أن يدور حوله، ولا يصل إلى نهايته، يريد أن يبلغ قطاره الذي غادره منذ لحظة واحدة، كأنها حدثت مع ذلك في عالم آخر انطوى تاريخه منذ أمد سحيق، ولكن القطارات كلها قد اشتبهت عليه، بصمتها، وتمائلها، واتصالها الذي لا ينقطع، لا مبالية.

دار أخيراً حول آخر عربة من قطار واحد مشتبك العربات، ووثب يصعد الرصيف في اندفاع لا جهد فيها، وخارقة، وقلبه يملاً المحطة النائمة كلها بضربات عناد لا ينهزم، وانحدر مرة أخرى، كأنما تحمله أيد خفية، يعبر آخر القضبان إلى قطاره في الرصيف التالي، هناك، أمام عينيه، في متناول يديه، وقد انشعبت في عينيه بروق متلاحقة في لهفة حارة. ما زال قطاره واقفاً حيث كان، لحظة واحدة الآن، لحظة واحدة ويندفع إلى عربته، ويجد حجر خلاصه، وصخرة نوره.

اصطدمت قدماه وساقاه، في شبه العتمة، تحت سماء الليل، بشيء طري طبع، على القضبان. وتعثر، ووقع إلى الأمام دفعة واحدة.

وجد نفسه راقدًا على الأرض، على وجهه، منكفئاً على القضبان الحديدية الطويلة، ذراعا ممدودتان أمامه على الزلط والحصى وحببات الرمل الكبيرة، ينشق راثحتها الترابية الخشنة، ويحس لذع كشط حاد في جانب وجهه الأيمن، وتحت ذقنه، أطراف أصابعه مكدومة، وقد أذهلته السقطة المفاجئة وشلت وعيه. لم يعد يحس إلا العرق الملح يتقطر على عينيه وقد تضخمت أمامها أحجار الزلط الصلبة الباهتة

المعوجة القوام، كأنه لا يدري بعد ماذا حدث. وعندما عاد إليه الوعي، بعد خطفة زمن لا تكاد يحسب لها حساب، وجد نفسه في هذا العالم السفلي، بين حائطين شاهقين من أرصفة المحطة، على جانبيه، وهو في النفق المفتوح بينهما، كل شيء حاد، وقاطع وشديد الوضوح. ولكنه لم يعرفه من قبل قط. كانت القضبان تحت عينيه، قوية ويانعة الرسوخ في ضلعها الواحد المستدير الممتد إلى ما لا نهاية، والزلاط محبب، مدور، مكسر الحواف، وحببات الرمل خشنة ناتئة كالحجر المصحون. لكن وجهه - مع ذلك - مدفون في طيات شيء كاللحم البارد الرخص، مألوف وحميم وبشع يهز قلبه بقشعريرة مثلوجة، لا يراه، وراحتا يديه تقعان على عضلات جسم مبتورة ومكتنزة كأنها تنبض، في برودة ممتصة، وتصد الحس تلتصق به وتشله وتميته.

انبثقت في جسمه كله، من الرعب، شرارة كهربية واحدة خاطفة، ووجد نفسه واقفاً، ومس الصعقة الكهربائية المتوتر ما زالت أصداؤه تتردد في أطرافه كلها. وقد وثب إلى الخلف، يحدق إلى فراغ الأرض، والقضبان الصامتة المصقولة النظيفة، والأرصفة، تبدو له كلها متينة، عملية، راسية.

لم يصدق. كان وحده في المحطة الفارغة، تحت خواء سماء صدئة، وأعمدة السيافور منطفئة لا تشير إلى شيء، والسقف الزجاجي الدافئ بعيد.

حس الأشلاء المبتورة المرمية على القضبان ما زال في وجهه ويديه، حس اللحم الانساني المحظور والمحجوب معاً، البارد، عضلات بطون وأطراف سيقان مدورة وأذرع بضة متشابكة، باردة، باردة، هامدة،

لكن فيها مع ذلك ورعاً لا يخطئه القلب أبداً، روع التلاصق بأجساد مية، بأجساد المحارم الميتة.

لم يحدث. لم يحدث شيء من هذا كله. غير معقول. ماذا أصابه؟ لا يعقل أن الصدمة قد أصابته بهذا. الإنكار مع ذلك سطحي لا جدوى فيه.

في عمق يقينه، في غور بعيد مثقوب في دخيلته صوت صغير لا اسكات له: نعم نعم. حدث.

القطار ما زال واقفاً، باهتاً، نوافذه، وأبوابه فاغرة سوداء، على الرصيف التالي، قريباً جداً، ولا سبيل إليه.

نفض عن نفسه هذا الكابوس غير المعقول، كما ينفض حيوان بري عن جلده قطرات ماء غريب. وأوشك أن يسخر من نفسه.

نعم، سقطت، هذا كل شيء. ما خيل إليّ أنه حدث في لحظة السقوط الخاطفة، محض وهم من القلق واللهفة والفقدان.

قدماه تصطدمان باللحم الطيع الممدد على القضبان، والرعشة تثلجه مرة أخرى. وهو يخطو إلى الخلف، ويتقدم، ويقع، ويقوم، مرة بعد مرة بلا انتهاء، في عناد لا عقل فيه، في تصميم لم يعد يملك فيه من أمره شيئاً، يطيع، في عمى، حافزاً لا يرد ولا جهد ولا ارادة في طاعته. يرتطم وجهه ويداه وصدرة، مرة بعد مرة، بلا انتهاء، بسور لا عبور منه، من الاشلاء النظيفة النقية الشاحبة، كأنه يراها في العتمة. لم تعد هناك إلا هذه الدورة المتكررة أبداً من الاتصال بهذه الجثث والانفصال عنها، جثث أخواته، جثته، تتخايل له تحت السماء الفسيحة، مقطعة ولكنها بريئة، انثالت عنها الدماء وانحسرت تماماً،

وتركتها صافية بيضاء، هرستها عجلات القطارات الذاهبة الآية،
شقتها طولاً وعرضاً على الرمل والحصى، ومضت عنها، نضت عنها
كل أدران الحياة وأخلاطها، مكومة، في نسق غريب، ونظام سيقان
مبتورة. حادة البتر. رؤوس مجزوزة كأنها سقطت من كلابات
الخطاطيف، عيونها ما زالت تترقرق فيها المياه، يقظة، أوصال
متراكمة بعضها فوق البعض مرتاحة في نوم الزمالة الأخيرة، محدة
الجوانب والأضلاع، انصبت منها، منذ زمن بعيد، كل لزوجة الدماء
ولوثاتها، وبقيت طاهرة مصفاة، ناعمة ولينة ولكن متوفزة ومتماسكة،
تكاد ترثجف بالنبض، بقايا أجسام غضة من غير سوء، كأن فيها، ما
زالت، روحاً محبوسة لا تريم، لا تنهزم، أنفاساً تتردد في عمق خفي
لا ينال، تنتظر. فيها، ما زالت، حياة قاسية باردة، لا تطالب
بشيء، لا تريد شيئاً، لا تقول شيئاً، لكنها صارمة عبوس. لا تبرح
مقامها المثلوج. ستظل تعمره أبد الدهر، تحت العجلات، وفي خواء
الليل على السواء، متجهمة في أسارها الذي لا ينفك، بإدانة لا براء
منها، ولا تقويم لها.

(٣)

أرصفة السكة الحديد تمتد، متينة ومظلّمة، متجاورة بلا نهاية.
عريضة وخالية.

والسما المعتمة فوق شاسعة ومنفصلة. الليل الذي فيها لا
ينجاب. والنجوم ثابتة، صغيرة، لن تذوب في أي فجر.

أسأل نفسي لماذا هذا الخواء في هذا العالم الذي ليس لي غيره ولا
أعرف كيف أخرج منه. لا أعرف أين الباب. أعرف أنه لا بد أن
يكون هناك، ولكني لا أعرف طريقاً إليه، أي طريق.

كأنني خرجت من تحت سقف المحطة الزجاجي العالي، وكأن أمي
وأخواتي البنات الأصغر مني قد خلت منهن المحطة، وتركتني وحدي.
أتلقت حوالي، تحت ضغط اللفظة المحكوم الهاديء، ولا أرى سور
المحطة من وراء الأرصفة المتكررة، رصيفاً بعد رصيف، على يميني
وعلى شمالي، بلا آخر. القضبان الحديدية بينها ساقطة على الأرض،
مدورة، ملتوية ومستقيمة، متشابكة ومتوازية، عيناى تعرفان مدى
صلابتها التي لا يمكن أن تنكسر، شديدة اللمعان من فرط احتكاك
العجلات الدوارة بها ليل نهار، الأقراص الحديدية الهائلة التي لا

تقضم منها جذاذة ولا تصنع شرخاً، بل تزيد لها عناداً. والقطارات الضخمة سوداء، مربوطة بلا جدوى بقاطراتها الهامدة، لا أعرف من فيها.

يجب علي أن أجد الشباك الذي أقطع منه تذكرتي. شبائيك التذاكر حوالي من وراء قضبانها الوثيقة المتقاربة، منيرة ولكن مغلقة، ليس فيها وجه، ليس فيها أمل. والوقت يفوت، والساعات الكبيرة المدورة الوجوه ممسوحة ليس فيها عقارب، ولا أجد من أسأله.

كنت أعرف أن الباب هناك تحت ممر واسع ومرتفع ودائري العقد والهواء فيه نظيف، في وسط جدار المحطة الداخلي السامق العريض الأحجار، وأنه مغلق الضلفتين، ومصنوع من الحديد الرقيق المشغول أطرافه المدببة على شكل السهام المرشوقة في أعلاه، مطلية بالذهب، ولا يفتح إلا عندما يأتي الملك في قطاره الأبيض ذي الشرفات المزركشة. ويفرش البساط الأحمر ويمتد تحت قدميه من عتبة القطار على طول الرصيف وعبر الباب والممر العريض المنير حتى الساحة الخارجية، وتمتلئ المحطة بالجنود والزهور في صفوف وثيقة ومتلاصقة لا ينفذ منها شيء. ولا يقف عمال الأبواب على رؤوس الأرصفة عند الحاجز الحديدي المنخفض، لا يثقبون التذاكر بمقراضهم الحديدي الشرير الشكل ولا يقتضونها منك عند الخروج، فلا يمكن أن تدخل أو تخرج الآن. مرة واحدة لمحته من بعيد، الملك، من بين ظهور الجنود والناس الواقفين بجلايبهم وطرايبشهم وعمائمهم وشيلائهم وربطات العنق الرفيعة الضيقة الخناق، ورأيت اهتزاز ذيل «السموكنج» الطويل الذي يلبسه على جسمه الثقيل، غريباً على ساقيه المتلتين، وجانباً من وجهه المحتقن المزدحم بالدم، وشاربه

القائم بذؤابتين رفيفتين مشدودتين «بالكوزماتيك» المشمع. كان أبي يقبض على يدي بقوة، ونحن نخرج في الزحام، وأشم الرائحة الحريفة من معطفه وسجائره ورجولته، وهو يمسك بعصاه الرفيعة السوداء الحديدية الكعب ذات المقبض الأبيض المحفور بزخرفة عرفت عندما كبرت أن اسمها «قلته فلتس» من العاج المخروم. كان في ميدان المحطة قره قول من تلاميذ المدرسة الحربية بالشريط الأحمر الذي يشق البنسطلون الداكن الضيق المستقيم حتى تحت الحذاء الاستيك اللميع، وبلوك من الجيش البريطاني، وموسيقى القرب الاسكتلندية بأصواتها الشاقبة المملة، والجونلات ذات الطيات المتعددة، وقطرات العرق تتفصد ببطء على الوجوه المحمرة ولا يمسخونها والموسيقى النحاسية تضرب بقرقعات بهيجة وايقاع واحد لا يتغير. وجندي قصير يحمل طبلأً ضخماً على بطنه الكبير يدق عليه بانتظام دون توقف، كأنه وحده في العالم.

جنود بلوك النظام ينزلون جرياً من عربات الجيش المربعة العمودية الجوانب، على سلام قصيرة مثبتة في مؤخرة السيارات، ويطاردوننا، بقمصانهم الطويلة المهذلة وسراويلهم التي تنزل تحت الركبة بقليل، وسيقانهم السوداء مربوطة بلفائف «الألشين» الكاكي الرمادية التي ترتفع إلى ما تحت الركبة بقليل. ونحن نجري في ميدان المحطة الفسيح بين عربات الترام الصفراء اللون التي توقفت، واحدة بعد الأخرى، على خطوطها، والناس ينظرون منها بفضول. وكان تلاميذ المرقسية ورأس التين قد انضموا إلينا. وكنت أهتف، ولا أسمع صوتي: تحيا فلسطين. يسقط وعد بلفور. الاستقلال التام. . . حلت العلم يا عبد الحكم. . . الشمس حارة في دماغنا ونحن نجري.

والشتائم البذيئة من العساكر تلاحقنا، والعصي القصيرة في أيديهم.
وكانت الشتائم موجعة جداً. والغضب يلف العالم، ولا ينجاب
أبداً.

كان الجدار الخارجي الجانبي للمحطة، أمام باب الدرجة الأولى،
يرتفع حتى الشارع العلوي تتخطر عليه عربات الخنطور التي تبدو
صغيرة، وأجراسها دقيقة مصلصلة الصوت، فوانيسها النحاسية
الأمامية بزجاجها المصقول المكعب السطوح، كأنه معمول من ماس
كثيف ونقي، تحبس شعلات صغيرة صفراء محمرة تتقد في النهار. وقع
حوافر الحصان على بازلت الطريق له موسيقى رشيقة. وكنت أنظر
إلى اعلانات «شركة الأدياتيك وتريستا للسفرات والملاحة»،
والباخرة تمخر مياه الحلم المتموج بزرقه فاتحة الصبغة، دون أن
تتحرك، مستقيمة الخطوط وهفافة الريح في وقت معاً، ثابتة في
سرعتها الساكنة التي لا زمن فيها، ونوافذها، في البطن المسطح،
بصفحة المستوية، فتحات كاملة الاستدارة ومسدودة بلون الزجاج
المعتم الشفافية.

كنت أرقب «الدبور» الذي صنعه من ورق كراسات المدرسة،
مدبباً أبيض حاد المقدمة، أشد طيرانه بالخيوط الطائر في السماء، بحزم
ورفق، فوق رؤوس النخل، وأنا على سطح بيتنا في غيط العنب.
وقلت لنفسي بفرح إنني عندما أكبر جداً، وأصبح في العشرين،
سوف أسافر في بعثة، كما سافر رفاعة رافع الطهطاوي، إلى
مارسيليا، وأركب البحر على باخرة شركة الأدياتيك وتريستا،
وأعرف فنون الحرية في باريس كما لم يعرفها أحد في عصر قط. وكنت
أعرف أنني لم أركب هذا البحر، ولم أخرج عباب هذه الحرية، وأن

القلب الطفلي ما زال يطفو فوق أحلامه القديمة وإن كان الآن قد تصدع بشقوق رقيقة وقاتلة.

أنزل السلم العريض بدرجاته الحديدية المفتوحة، كسلام الحريق لأقدامي عليها رنين معدني. سياجه الدائري يهبط معي إلى دور سفلي في المحطة المعقدة المسالك، خاوياً أيضاً بلا نهاية، والسماء نفسها فوقني، وفوق الأرصفة العلوية الأخرى، منفصلة لا تزال، لا يهب فيها النسيم.

وأجد أمامي المصعد الكبير الذي ينزلق على بابهِ الحديدي المصمت، يهدوء وثقة في مجراه المحفور، ويصطك بالجدار المعدني بصوت ثقيل نهائي. وفي الهبوط البطيء أحبس في قلبي الروع الذي يريد أن ينفجر. هذا الباب لن يفتح عليّ قط. لن يسمع أحد صوتي عندما أنادي النجدة. لن ينجدني العالم.

وتسكت حركة المصعد الفسيح، وتمر ثانية واحدة، كأنها لن تمر، من الصمت التام. الباب مغلق، لا ينبض.

ثم يرتعش الباب ببطء، على الرغم منه، وينزلق مفتوحاً.

وأقلت منه كأنما خرجت من قبر ذي أصداء، مضيء بمصباح كهربائي مدور تتحلق به شبكة أسطوانية من الأسلاك الحديدية عليها سحابة ضعيفة الحركة من الهاموش.

وتمتد أمامي الأرصفة المتكررة المفتوحة مرة أخرى. وتزداد السماء وليلها الملتبس ابتعاداً. الأدوار العلوية، دوراً فوق دور، مدكات شاهقة من الأسمنت مغلقة بأحجار البازلت اللامعة.

لا أريد الاستسلام للفرع الذي في ساقي، ولا أريد أن أجري في

شوط لا أعرف له وجهة ولا نهاية. أرفض اليقين الذي في جسمي
بأنني ضللت إلى الأبد بين هذه الامتدادات الشاسعة من الأرضفة
المتعاقبة والمتقاطعة والمتراكبة، بين أسوار البازلت الشاهقة، ترتفع
عليها مصاعد البضاعة الهائلة وتسقط مغلقة الأبواب.

العناد، كاليأس، لا ينكسر.

صفارة القطار تنطلق فجأة في الصمت المعتم الريحيب الذي تقطعه
مصاييح عالية صغيرة. ويتردد لهذا الصوت الوحيد صدى أجوف
الصدر، يصطدم بالسقف الزجاجي المحذب البعيد، قضبانه العلوية
المتشابكة في نسق هندسي رقيق التصميم، تبدو مفصلاتها القوية
العضل هشة وحساسة أمام عيني المرفوعتين.

والقطار يتخم نفسي، أخيراً، بدقاته الرتيبة، مرة أخرى، كأنها
دائماً هي المرة الأولى. وهو ينطلق في نور الظهر القاسي، بايقاعه
المتراوح الذي يتضخم وينفجر في خبطة مكتومة ثم يهبط. يتضخم،
ويمتلىء ويقرقع في هدة مكبوحة، ثم يخفت. هزيمة المتصل المتناوب
الصددمات يصطفق في داخلي، دون هوادة، في عزم ليس له انقطاع.

أسأل نفسي السؤال الممزق، وأنا صامت، جامد الجوارح: أين
يقف هذا القطار؟ وإذا وقف، فكيف أعرف أنها محطتي؟

إيقاع دقات العجلات على القطار، منتظماً، لا يفرغ، وطنين
المحرك المليء بالقوة لا يبالي شيئاً، هو صمت خاص.

الزجاج المحكم على السخونة الهفهافة في العربة المكيفة الهواء يبدو
منيعاً، لا يتحرق.

وكأنما على الرغم مني ارتفعت يدي، لا أملك لها رداً، تبحث

وتلمس بلهفة مضغوطة متطلبة . يدي تريد أن تجد مقبضاً أمسك به ، مفتاحاً أديره ، زراً كهربياً أضغط عليه ، حلقة معدنية أجذبها ، أريد أن أفتح الزجاج ، أنشق الهواء البارد الذي أراه يهز أشجار الغيطان وعيدان الذرة ، أعرف نسمة المترية المحيية . لا ينال .

جدار القطار المعدني ، منبسطاً وناعماً ، ليس فيه أدنى خدش ولا نتوء ، لا يقطع سطحه المصمت شيء . والستائر الكريتون الصفراء بلون الخردل الغامض تسدل على جانبي الزجاج بريئة ، بيتية ، أحس فيها مع ذلك قصداً خبيثاً ، وهي مصنوعة بمكر وأناقة متكررة ، كلها متطابقة .

ترتفع يدي مرة بعد مرة ، بارادة خاصة ، أكابد الحيرة التي لا تنقضي . وأجاهد حتى لا تبدو على هذه المكابدة الوحيدة ، فأسترق النظر إلى الركاب الصامتين ، كل منهم وحده أيضاً . حتى الأزواج والرفقاء ، متفارقين . وأعرف أنهم يسترقون النظر ، في أعينهم اتهام غير معلن ، مترصد ، هل ينتظرون اللحظة التي يفصحون فيها عن شيء كالإثم قد اقترفته ، لا أعرف ما كنهه ، لكنني أعرف أنه هناك ؟ وأفاجيء نفسي بالسخرية من نفسي : تظن نفسك من أصحاب الأثام ، وتظن ذلك بطولية مقلوبة على وجهها ، من غير شريك ؟ والشركة في الإثم لا هي تبرئك ولا هي تمجدك .

وقلت لنفسي ليس بين هؤلاء الذين يركبون معي من يثير الاهتمام .

هذه المجموعة المعتادة من ركاب «الديزل» الدرجة الثانية المكيف :
أواسط كبار الموظفين بعيونهم المتورمة وذقونهم المتهدلة اللحم

وحقائبهم «السمنونات» الأصلي والمقلدة التي تحمل أوراق الإدارة أو الشركة أو تصميمات المشروعات المربحة للجميع، وضباط الجيش الشبان، والذين ليسوا شباناً جداً، بملابسهم الكاكي المكوية وقد خلعوا الكاب ووضعوه على الرف العلوي المزدهم بحقائب جديدة صغيرة ومتوسطة وبأكياس النايلون المنبعجة بما فيها، والزوجات - أو غير الزوجات - المنهكات جفت النيران الوجيزة التي عرفها بسرعة، مكحولات ومصقولات الخدود وشفاهن داكنة الاحمرار بالماكياج المستورد، صدورهن المشدودة لم تعد لها جدوى، والمقاولون، والسامسة والتجار ورجال الوكالات وشركات التصدير وخصوصاً الاستيراد، لا تخطئهم العين، ملابسهم غالية ولكنها ما زالت توحى بالجلباب الحرير والقفطان الشاهي والمعطف البلدي، عيونهم صلبة ومعدنية. وقلت لنفسي لا، لا يهتموني، لست منهم. وأعرف أنني لا أختلف عنهم في شيء. ولعلمهم يعرفون أنني معهم. وقلت لنفسي لا، لست منهم، لست أنا. ثم قلت لنفسي ومع ذلك فأنت هنا، معهم، في قطار واحد، وعربة مكيفة الهواء واحدة، وسوف ينتهي القطار بنا جميعاً إلى محطة واحدة. ويداي تحترقان فجأة برغبة لا جدوى منها في أن أجد مفتاحاً يشق انسداد هذا الزجاج المغلق عليّ وعليهم. ورأيت فأس الحريق الحمراء الصغيرة، في صندوق زجاجي مغلق بإطار معدني من الألومنيوم الثقيل ومعها تعليمات مطبوعة عن كيفية استخدامها عند اندلاع النار. أين رأيت هذه الفأس؟

هل يمنعوني من النزول عندما تأتي محطتي؟ وما محطتي؟ هل يعرفون أنني ليس معي تذكرة، يعني أنه لا مكان لي هنا، في حقيقة الأمر؟ وهل هذا صحيح؟ لا أذكر هل اشتريت تذكرة، ولا أريد أن أبحث

عنها الآن في جيوب، في المحفظة، بين صفحات مذكرة الجيب، لا أريد أن أثير شبهاتهم، لا أريد أن أستعدي اتهامهم، لا أريد أن أستفز هجومهم، لست أخافهم، صحيح، لكن ما الداعي لأنواع من سوء الفهم وتخبط المقاصد؟ سأنتظر حتى يأتي المفتش وتنتهي المسألة، أما أن أجد التذكرة أو أدفع الثمن مضاعفاً، والغرامة، وبدل التكييف والدمغة والرسوم. أم أن المفتشين يرفضون قبول الثمن، ينتظرون حتى الوصول إلى أول محطة، ويأخذون المسافر الذي اقتحم القطار إلى مكتب الناظر.. لكي.. ما هي الكلمة؟ لكي.. لكي.. يطوق.. نعم هذه الكلمة. يطوق، أو يجبس.. لا.. لا.. كان هذا من زمان. في طفولتي. أليس كذلك؟ لم يعد الأمر الآن على هذا النحو. لم هذا الفرع المستكن لا يرئيم، بذرة أثرية قابلة للانفجار، لا تريد أن تنفجر عن شجرتها السامة، ولا تريد أن تموت. غريب أن المفتش لم يجيء حتى الآن. لا بد أننا سافرنا ساعات وساعات. هذا القطار مباشر صحيح، لا يعرج على المحطات الوسطى. إلام يذهب؟ ما المحطة التي يجب عليّ أن أنزل فيها؟ عندما تأتي سوف أتعرف عليها. سوف أعرفها سوف أعرف اسمها. من شكل الأرصفة، وشبابيك التذاكر، والأبواب الجانبية، والسقف، سوف أعرفها، من نداءات الحمالين، ممن ينتظرون. يجب أن أعرفها.

كان القطار قد ارتفع فجأة فوق جسره، يتسنى طريقاً له وحده. وهبطت الأشجار تحتي، ورأيت ذؤاباتها الكثيفة تنوس برشاقة غير انسانية موسيقية، خبطات القطار قد ازدادت عمقاً، ولها صدى، وهو يشق السماء المحايدة المحجوزة وراء الزجاج المسدود. حدائق البرتقال

تمتد تحت الجسر، تبدو نائمة، شجرها قصير ومدور وخضرتها داكنة والحبات الصفراء المخضرة مرشوقة في الكثافة التي تنضم عليها، بنهم، كأنها ملصقة هناك، غير حقيقية، فواكه الشمع التي كنا نضعها في فسحة بيتنا وأنا صغير، خداعة لا تؤكل ولا رائحة لها. وعلى حواف الجنائين أشجار الموز القميثة، مفلطحة الأجنحة، عقيمة، تأكلت أطراف ورقها العريض الذي يتهدل هس النسيج. والطرق تتشعب، تحت جسر السكة الحديد، إلى مفترقات وعمرات ضيقة بين الغيطان الصفراء المحشوشة الزرع، والبرك الصغيرة بمائها الأسود الراكد عليها أوزٌ قليل يجري فجأة مفرعاً لا أسمع صوته، تحت أسوار حجرية تعلوها أسلاك حديدية مديبة، تحيط بخرابات مهجورة فيها طوب وكتل من الإسمنت ولافتات زرقاء واسعة تحمل بالحروف الإنجليزية والعربية أسماء شركات وبنوك إيرانية وسعودية مصرية مشتركة ونوايا مصانع لإجهزة التكييف وثلاجات للخضر والدواجن ومناطق حرة للتصدير والتوريد، وربوة مضطربة الارتفاع تأتي فجأة، وعليها الشواهد ومكعبات القبور المحدبة الجديدة التلوين، تحت شجرة الجميز العتيق.

خطفت تحت بصرى فجأة، على حافة التربة البطيثة الجريان، سيارة مرسيدس واقفة متمرة، فاجرة اللمعان تحت ورق الموز المسطح الجاف، وبالقرب منها نساء سمينات وجوههن كالخزف الأملس، مشقوقة الأفواه والعيون، يأكلن بتصميم وصمت من طواجن متعددة، يجلسن على ملاءة سرير وردية اللون مفروشة على تراب الغيط، وأيديهن لا تتوقف، تحمل قطعاً كبيرة من اللحم والخبز المليء بالطبخ إلى الأفواه المصبوغة. وكانت أفخاذهن عارية وسمراء وكثيفة

في جلستهن على الأرض، وأولادهن يتحلقون حول الطواجن وترامس الماء الكبيرة البطون. وبينهن فلاحات عجائز، كأن أجسامهن خشبية، بالطرح السوداء الجديدة، يقفن غير بعيد، بلا حركة. اندفع القطار، وارتفعت وجوه النساء إليّ، الأفواه تتحرك، والعيون جامدة من اللذة المكررة المعتادة، واختفين وراء القطار.

نافذة القطار المزدهم مفتوحة، وأنا أقف بين الناس والقفف واللفف والربط والسلال الشائكة الخوص والحقائب الكرتون المقوى المصبوغ بلون الجلد، أضع قدماً واحدة على أرض القطار المهتز، وأستند بذراع أثقلها التعب والتوتر على مسند المقعد الخشبي وراء رؤوس الفلاحين وأولاد البلد المتلاصقين بالبلد والطواقي والطرايش، وقدمي الأخرى مرفوعة محشورة بين السيقان والشنط والكرايب التي يكتظ بها ممر العرب. الرياح يجري تحت القطار بمياه الحمراء العفية العضلات، أمواجها الصغيرة تسابق القطار وتتقلب عليها كتل صغيرة من الطين والقش والأعواد الخضراء. هواء العصر في هذا اليوم من أواخر سبتمبر يهب على وجهي، بارداً وقويًا، من النافذة الخشبية المفتوحة، ويدخل بنفث الدخان الدقيق الذي أحسّ ذراته السوداء على يدي وأعلى صدري تحت القميص غير المكوي المفتوح من غير كرافته، والجاكته الصوف الجاهزة. الأشرطة البيضاء شاخنة فوق أجسام المراكب المدببة الصدر ثابتة الجريان على مياه التربة التي تبدو فجأة ضيقة ومزدحمة.

قرعة القطار لا تتوقف، والأفندي، بجانبني، يتحدث بثقة من تحت شاربه الكث ومن كرشه الكبير، ويقول لفتى اسكندراني أمامه، ملوح الوجه وأزرق العينين، باللاسة اللامعة واللباس الأسود الواسع

المتهدل الطيات، إن الحكومة عملت وزارة جديدة اسمها وزارة التموين، وسوف تعطي الناس كاربونات للجاز، وبطاقات، دفاتر صغيرة مخصوصة يعني، فيها أسماء العائلة وتصرف لهم السكر والزيت بها. وامرأة ممتلئة القوام في ملاءتها التي تراخت على كتفها، وكشفت عن صدرها النازل من فتحة فستانها الواسعة، مصممت بفمها الشهواني ورفعت حاجبيها المحفوفين، قوسين رفيعين على عينيها اللامعتين من الالتصاق بأجسام الرجال، تحت قمطة شعرها المحبوك على جبهتها المدورة وسألت: كيف تترك الواحدة أسماء ضناها، اسم الله عليهم، عند الحكومة والبقالين ومن يسوى ومن لا يسوى؟ هذا لا يرضي ربنا، حتى. ونظرت إلى الولد الاسكندراني العترة إلى جانبها، بطمع صريح. وتذكرت أمي. وكانت صحوة رجولي الجديدة مذنبه. وكان جسمي كله مشدوداً من الوقفة المتزعزعة والزحمة واليقظة في الفجر وركوب الخمار مع أختي الصغيرتين وانتظار القطار الفرعي في محطة كفر داود الذي يتوقف كل خمس دقائق، ثم الانتظار في محطة ايتاي البارود للحاق بقطار الإسكندرية. ولم نكن قد أكلنا إلا القراقيش التي عملتها لنا جدتي باللبن الرايب والزبدة، وأوصتني على اخواتي ودعت لي بأن يكتب لي في كل خطوة سلامة وأن يحوطني، بحق ابنه يسوع، ببركة الصليب في كل مطرح أحط فيه رجلي، وقبلتني على خدي بشفتيها الجافتين. وشممت رائحة الحطب والخبيز من طرحتها السوداء وهي تضع حولي ذراعيها الصغيرتين.

أستند بجزء من ظهري إلى القفة الكبيرة التي وضعنا فيها الوزه المذبوحة المنتوفة الريش، والقراقيش، وصبغة الزبدة التي سوف

تسيحها أُمي لتعمل منها السمنة والمورثة، وأستند بجزء من جنبي إلى حقيبتنا الكبيرة التي ربطنا فوقها، بخيط غليظ، لحافنا القديم. ولم يكن اللحاف نظيفاً جداً، كنا قد تغطينا به منذ كنا صغاراً جداً، أنا وأخواتي، عاماً بعد عام. والهواء يندفع من نافذة القطار فيفضح رائحة اللحاف. والفتاة التي تجلس أمامي، ملتصقة جداً بأختي من ناحية، وبالست العجوز المهدمة التي لا بد أنها أمها، أو خالتها، من ناحية أخرى، تحول وجهها عن الحقيبة كلما انحرف القطار في طريقه فاشتد تيار الهواء. وأحس العرق الخفيف ينجز وجهي بفتات دخان القطار الدقيق. وكان وجهها جميلاً وسمرتها صافية وحية، وعيناها حادتان متقلبتان بموج صغير فاتح الخضرة. وجسمها المزحوم يبدو لعيني قوياً ومتوفزاً، مدور البطن، وكان صدرها كبيراً ومحبوكاً ومثيراً. وتنظر إليّ، ولا أجرؤ على فهم ما تقول عيناها. وقلت لنفسي: هل هي تلميذة بالثانوي تعود للمدرسة، مثلنا؟ أو بائعة في صيدناوي، مثلاً، أو هانوي؟ وسرحت في قصة عن أنها تحب ولداً مثلها وأنه يحبها ويشتاقي إليها. وقالت لي فجأة بصوت غاضب ألا أستطيع أن أزحزح هذا من أمامها؟ ألم يكن هناك مكان آخر أضعه فيه؟ وأصابها المكتنزة الدقيقة الأطراف بعيدة كأنها تخرق، جارحة، ربطة اللحاف التي يضطرها الزحام أن تضغط بساقها عليه. فرددت عليها بصوت هاديء ومؤدب ومثقف أنني متأسف ولكن الأمر لم يكن بيدي فقالت بصوت حار وثاقب إن هذا غير ممكن بل غير لائق. ووجدت نفسي أجيب بصوت مستثار ومستفز أنها ترى بعينها هذه الزحمة وأنها لو تستطيع أن تجد طريقة فلتفضل بأن تقولها، وقالت هذه الربطة هل يعني من نصيبها أن توضع أمامها، وما هذه الربطة؟ أهذا يصح

يعني؟ ولم أتنبه إلى أن سؤالها كان سؤالاً حميماً، وكانت عيناها الآن مشتعلتين وكان صوتي الآن عدوانياً ومهاجماً وأنا أقول إنه يجب أن نتحمل بعضنا ساعة زمن على أقل تقدير وأني لست السبب في قيام الحرب وزحمة القطارات وأن المسألة ليست ما يليق وما لا يليق بل مسألة ظروف لا نتحكم فيها، وضبطت نفسي أوشك أن أفلسف أخلاقيات زمن الحرب فسكت مرة واحدة وسكتت هي بعد أن تنبعت إلى الناس حوالينا وكانوا ينظرون إلينا، وكانت السيدة الملفوفة التي تبدو في عنفوان نضوجها المتأخر قد مالت على الولد الاسكندراني جارها، تتابع الخناقة، ورفعت يدها تسوي مدورتها بسرعة على شعرها، وانحدرت الملاءة السوداء على ذراعها العارية البيضاء المتموجة المياه، وكان جانب ثديها الآن ملتصقاً بكتف الفتى وبدا كأنه محبوس وممتلىء. وعادت فرقة القطار تتابع وتدق، مرتفعة مرة أخرى، وتغرق مهمة الكلام ونداءات البياعين الذين يقفزون وينحشرون بين الركاب والقفف والحقائب، يحملون على رؤوسهم مقاطف اليوسفندي الطازة العشرة بقرش. واكتشفت فجأة وهي تنظر إلى بعينها الخضراوين، فيها غضب وفهم، أني متوتر وصلب جداً، وإن بطنها دمث وراسخ، وصدرها يهتز، بثقة، مع هزات القطار الرتيبة.

عندما ماتت أختي بالتيفويد في آخر ذلك العام تذكرت نظرتها الوديعة إليّ وهي بجانب هذه الفتاة، كأنها تغفر لي، وتذكرت أننا لن نجد عربة حنطور تقبل أن تحملنا إلى البيت من المحطة بثلاثة قروش وهي كل ما كان معي، وأني حملت الحقيبة وتركت لها القفة الكبيرة وكانت ثقيلة عليها، فرفعتها وحملتها فوق رأسها، وهي ما تزال طفلة، بالكاد في الرابعة عشرة، وكانت نحيلة وشديدة السمرة

وشعرها مجعد وعيناها فيها شجن لا أفهمه وهادئتان، ومسحوبتان كحبات اللوز، وصعيدية جداً، وكانت أقربنا شياً بأي. وبكيت عندما تذكرت كيف كانت تسير إلى البيت بصبر وصعوبة، أمام المقاهي والدكاكين المنيرة المزدهجة في أول الليل، وتقول إنها ثقيلة فأقول هانت وسنصل بعد دقائق، وكانت دموعي صافية لأول مرة وعرفت أن البكاء لا معنى له وأن الألم الذي يمزق القلب شيء لا وزن له ولا يجد شيئاً عند أعز الناس إلى القلب. وتعلمت شيئاً آخر عن الوحدة، وأنا أبكي الآن، بعد السنوات الطويلة، بلا ضرورة أيضاً. وكنت حزينا وأنا أفكر أنني سأجد أختي تنتظرنى على الشباك وسوف أرى وجهها الصعيدي الناعم السمرة وعينيها العميقتين الخجولتين بسوادهما الذي تخفيه عني، وأنها ستقدم لي فنجان القهوة المضبوط الذي تعرف كيف تصنعه لي، لكي أسهر طول الليل أنني كتاب تاريخ الحضارة وأرده غداً للمكتبة البلدية. وقلت لنفسي إنني لن أضربها على وجهها بعد الآن لأنها تقرأ رواية غرامية من روايات الجيب وسأقول لها ألا تسهر تنتظرنى حتى أعود بعد منتصف الليل وبعد أن ينام كل من في البيت وتعد لي عشاءي وتسألني إذا كنت أريد فنجان القهوة المضبوط، لا داعي أن تسهرني، نامي أنت، سأعد لنفسي العشاء. وكنت أفكر أن الحزن ورقة القلب غريبة وقد فات أوانها من زمن بعيد، وليس لها الآن أدنى أهمية.

كان زجاج النوافذ مصمتاً والستائر الثابتة الكريتون الداكنة الصفرة تبدو كأنها ورق ديكور قديم وكركرة تكييف الهواء الجافة قد سكتت والناس صامتين يتحركون كأنهم مرغمون على النزول. ضباط الجيش من غير حماسة الآن، والنساء اللاتي بهت الماكياج على عيونهن المرهقة

الظلمة، والمقاولين بعد غلظة الأكل والبيرة وحسابات المكاسب العقلية وغير العقلية راضين جداً ومثقلين بأجسامهم التي كأنها ماتت عنهم.

والقطارات المنطفئة قد توقفت أخيراً في ساحة المحطة الداخلية التي تتوقد فيها مصابيح متناثرة على أعمدة عالية، بقعاً باهتة تسقط ضوءاً قليلاً على القضبان الحديدية. وتعريشة نباتات طازجة الخضرة في النور المصنوع، تتسلق جدران كشك خشبي مفتوح الباب، ووراءها أوراق التين الشوكي العريضة الكثيفة الجسد، أيديها ممدودة مدبية السنان، خضرتها غضة وشرمة وتوشك أن تتفجر بدمائها. أكوام تراب الفحم عالية ولامعة السواد بجانب الخضرة. القطارات قد أفرغت من سكانها، ونوافذها فوهات محترقة وعليها سواد الدخان. والدبابات الفاتحة اللون في الليل يقظة ومعمورة، خارج السور الحديدي الطويل، مدافعها ثابتة تحترق الظلام، مترصدة.

طلقات الرصاص بعيدة، تتجاوب متقطعة لها أصداء تتردد بين الشوارع التي انحسر عنها الناس، فأتسعت وهي تشق قلب المدينة الصامتة. والبيوت خارج سور المحطة مرصوفة ومتطابقة ومسدودة النوافذ، غارقة في الماء، مظلمة كلها، أعرف أنها مغلقة على نفسها، حقل من أزهار عباد الشمس الحجرية في الليل طوت أوراقها القديمة الصلبة على بذورها وتضامت أعمدتها الساقطة التيجان واقتربت بدون صوت من بعضها البعض فلم تترك بينها فسحة لاعتداء الليل.

وقع خطواتي ثابت وواثق على الحجر وأنا أرتفع، في الظلمة، على حافة بناء شاهق يقف على طرف جسر ترابي مرتفع، وتحت الماء الراكد كأنه مرآة ساكنة السطح، مدت عليه ألواح من الخشب تصل بين

الرصيف وحائط البناء المتين الأحجار. أصدد السلم الخارجية المنحوتة خارج البرج، من غير سياج، كتلاً صغيرة ضيقة وعرة، مرصوة فوق بعضها البعض، من حجر أبيض ثقيل الملمس تحت قدمي.

أرتقي السلم الحجرية بعزم معقود وأساسي، وأنا أرزح بالنشوة والغضب، معلقاً على حافة هذه السماء التي امتلأت بجسد الليل. أعرف أنني لا أستطيع النزول، أنني لا يمكن أن أنزل الآن، وأني أصدد إلى هذا الوجه بسمرته الصافية، وموج عينيه، إلى هذا الجسم الناعم الراسخ الذي سيبقى معي إلى يوم موتي، وأنه لا يمكن أن يفصل بيني وبينها شيء.

(٤)

كانت الشمس شتوية مغسولة، وهواء البحر يأتي إليّ من فوق ربوة الرمل الجاف التي ترتفع مباشرة على جانب الرصيف الحجري العالي في المحطة. أقف وحدي في المحطة الخلوية التي ليس فيها أحد، أحس الحجر الأبيض المهش فيه خيانة كامنة، تحت قدمي، والقضبان الحديدية تنساب فجأة بصمت بين الرصيفين القائمين، يرتفع على جانبيها صفان من الأعمدة الرقيقة تلتف حولها أغصان متلوية رفيعة الجسد من الحديد المشغول، كأنما تعتصرها في شبق مكتوم. أرى الأعمدة تصعد نحيلة، ولامعة في نور الصبح بلمعة منطفئة، حتى تعلو عن الربوة الرملية وهي تحمل السقف الزجاجي المحدث المحمل على عوارض أفقية مسطحة بينها أعمدة متينة قصيرة تترك فجوات للنور والهواء على شبكة العوارض. لوحات السقف الزجاجية تومض عليها الشمس وقد ضربت فيها عروق الحديد المستقيمة وشرابين متشرجة من دخان القطارات المتراوح السواد.

هبة هواء تحمل ورقة صحيفة يابسة على القضبان، ترفعها وتتخبط بها فتخشخش على الزلط بين الفلنكات الخشبية بمساميرها الغليظة الرؤوس، بصوت مسموع.

تتفرع القضبان بعد انتهاء الرصيف مباشرة إلى شبكة واسعة متعرجة ومتلاقية ومتفارقة ومتواشجة تدور وتنحني حتى تنتهي في البعد الغامض، تحت شمس بيّنة، إلى ركام من أحجار قديمة، وأسياخ الحديد الصدئ وأكوام الفلنكات الباهتة الخشب، وصهريج ماء فارغ ومدور ومقلوب على جنبه متغضن الجدران امتلاً نصفه بالرمل والزلط، وجدران أكشاك تقشر طلاؤها الأخضر العتيق، ساقطة بين أجسام الصبار والتين الشوكي الغليظ الأقراص.

كنت وحدي، أنتظر القطار الذي تأخر كثيراً وأسأل نفسي بقلق في هذا الخلاء: هل جاء وذهب؟ ولم أنتبه إليه؟ كيف يمكن؟ ولم أكن أعرف مع ذلك إلى أين سيمضي بي القطار، إذا جاء؟ مرسى مطروح؟ أم أبو قير؟ هل هذه محطة الضبعة أم العصافرة أم عين الشوك: عين الشوك؟ أهذه محطة؟ أين هي؟ كأنني لم أعرفها قط، وهي مع ذلك مألوفة أركب منها كل يوم.

نفح عطن خفيف جداً لا يكاد يحس يسري إليّ على مهل من الجانب المفتوح للمحطة، عبر منحدرات رملية واسعة وهينة التحدر داكنة اللون قليلاً من البلل. من ورائها أحس فقط، ولا أرى، مستنقعات الملاحه والهيش المتكاثف فوق الماء الثقيل.

وفي وسط سهل الرمل الصلب العريض أرى، من بعيد، بيتاً حجرياً يبدو صغيراً، وحده، له شباك مغلق، وعلى سطحه غسيل منشور، ملاءات مصفرة البياض وجلاليب نسائية ملونة ترفرف في العراء بصوت اصطفاق القماش الخشن في الهواء.

رفعت رأسي كأنما حفزني شيء لاجع ومفاجيء، فرأيت أختي

لويزة تجري بقدمين خفيفتين حافيتين، كأنها ترقص على موسيقى واسعة الجناحين لا أسمعها، على طريق غير مرصوف، فوق الربوة الرملية العالية، وشعرها الوثير الفاتح اللون يطير في زرقة الهواء، وفتانها الخفيف يهف حول ساقيها البيضاء المثلثتين، المتحركتين في رقصتها بلا وزن ولا ثقل، كأنها تسبح، يحملها الهواء من غير أدنى مقاومة. وكنت أعرف أنها ماتت منذ سنين، محروقة، في المستشفى الفرنسي في اسكندرية. وكنت أحمل في قلبي نظرتها الأخيرة قبل أن تموت، وقد تمددت على فراش المستشفى، بلا حراك الآن، ضاوية، جافة، جلد ظهرها كله احترق وسقط، ولحمها الموجوع مكشوف الأعصاب تحت الضمادات الكبيرة برائحتها النفاذة الحريفة، وقد أنهكها عذاب الحرب والعلاج الطويل والتخدير المتصل فما عادت قادرة على الكلام. أمسكت بيدها وأحسستها تسلم يدها لي، من غير حركة، وفي عينيها الثقلتين المفتوحتين على سعتها سؤال لا رد عليه، وعتاب نهائي.

وكان وجهها البيضاء المسوح مرفوعاً إلى فوق، في رقصتها المتماوجة، مضيئاً بنور ناعم من سماء البحر القريب.

أخذت أجري معها، وأنا تحت، أجري بين القضبان في المحطة التي تتسع وتنحدر وتطبق على، وسقفها أجده منخفضاً وعريضاً وبلا نهاية، والقضبان تتلوى حوالي، بين قدمي، بتفريعاتها الخبيثة الشكل. وقد امتلأت المحطة فجأة بالناس المرعين مسافرين وواصلين، والحمالين، الذين يجرون أمامي وورائي أكاد أتعثر بهم. وأجد نفسي أمام حواجز حديدية مشبكة مغلقة من خلفها المراقبون يترصدون بي، وفي أيديهم المقرض الحديدي الضخم البشع الحواف،

بلسانه المدور الحاد الذي أعرف أنه لو انطلق بضغطة من اليد من بين
الفكين القابضين فسوف يثقب صفحة قلبي المثقلة بسنه القاتلة
المديبة، ثقباً واحداً، يغوص حتى النهاية، والصمت. وأكاد أصطدم
بالمفتشين في البدل الميري الداكنة واقفين، يعرفون، ويتظنون،
ووجوه أخرى، كثيرة كثرة، جامدة تماماً، غير حليقة، تطل عليّ من
نوافذ القطارات الطويلة التي أجدها عن يميني وعن يساري،
فأجري، تحت، في وهدتي الحديدية المتعانقة الخطوط، بلهف
ومضض، وأعرف أنه لا نجدة لي.

كنت أريد أن أصعد إليها قبل أن تختفي وراء ريوه الرمل بعد
المحطة. أريد أن أتلمس طريقاً إلى الجسر اللدن الطري الكتلة،
وأعرف بمجرد الرؤية أن رمله الناعم سوف ينهار تحت قدمي لو
استطعت أن أجد السكة إليه، حتى لو استطعت أن أضع قدمي
عليه.

وكنت أتسلق المرتفع الرمي الآن، قدامي لا تثبتان، تنزلقان على
الرمل الذي ينحدر فجأة تحت ثقلني. وأرى، وأنا فوق، الشارع
الرملي الطويل، غير مسفلت، والبيوت عليه من الجانب الآخر
منخفضة وحجرية بنافذة واحدة عريضة كبيوت المكس والدخيلة
القديمة. وأعمدة النور المتلاحقة على رصيف واحد من الشارع مظفأة
في الغروب الذي يظلم سريعاً. وفي الشارع، عميقاً تحت، امرأة
عجوز نحيفة الجسم جافة، بملابس سوداء مترية، وعلى رأسها طرحة
قديمة مشعثة، وهي ترفع إليّ يدها، ولا أفهم ماذا تريد. هل هي
تطلب مني شيئاً أم تعطيني؟ ويفدحني ويعذبني أنني لا أعرف، بينما
أعلو فوق الرمل وأهوي. وفي غبش الغسق الناعم الملمس تنفتح

النافذة الوحيدة في بيت تحتي مباشرة، من الناحية الأخرى عبر الشارع الخالي، والنور من مصباح كهربى عارٍ ينصب وراء وجه المرأة التي أعرفها وأحبها، مدوراً، وخمرياً، وأسيل الوجنتين، ولكني لا أراه فهو معتم في النور الذي يأتي من خلفه، ولا أرى لسون عينيها ولكني أعرف من زمن سحيق خضرتها العميقة بلون الصبار الغض القديم، وأحس نعومة جسمها وانسياب ثيابها ووهج النور على شعرها المغدودن الكث. وأريد أن أناديا وأمد إليها ذراعي فأسقط على الرمل. وأحس نفسي أتدحرج عليه، وأهوي وعلى وجهي مس حبيباته الرقيقة أنشق رائحتها المصوحة، وأنا أتثبت بيدي كليتها بالكتلة المتهاوية التي تفلت من أصابعي. أثبت قدمي فلا أجد موطئاً، وأحتضن الرمل اللين فلا أجد موئلاً ولا ما أضم ذراعي عليه. وأعرف أنني مهما تمسكت به فسوف أنحدر وأنقلب، وأهوي إلى ما لا نهاية ولا قرار.

وأجد نفسي، تحت، على طريق القضبان، في باحة هذه المحطة الغامضة التي غصت الآن بقطارات تصل وتساقر تنهج وتنفت وتصفر صفيراً ثاقباً تتردد أصداؤه بين جنبات المحطة. والنور الكهربى من الأعمدة العالية محصور وميكانيكى الوقع. وثم طاقة مهدورة تنفث فجأة تحت عجلات القاطرة السوداء التي تنزلق بصمت وتمكن، حتى تقف راسخة وعالية. قطارات تقوم بانسياب بطيء هادىء، تطلع بصدورها المدورة العريضة إلى محطات لن أراها أبداً. وقطارات خالية معتمة ترجع على أعقابها في مناورة حريصة لتدخل خطأ متفرعاً آخر، عجالاتها تحبط فجأة إذ تصطدم بالتحويلة في القضبان. أما أنا فأجري مبتعداً عن القاطرة القادمة، المداهمة، متجهة نحوي بإصرار. هل أنا

أجري من شيء أم أبحث عن شيء؟ أم أنها كلاهما، ما يدفعني بلا
هوادة إلى هذا الجري الثابت الخطى لا أحس له جهداً ولا عبثاً ولا
يمكن أن يتوقف؟ لا أعرف. لا يهم. المهم هو هذا النداء الذي بلا
صوت، ما أني أنشده، وأنتظره، ويشدني، فأجري وأثب بخفة كأنما
يرفعني شيء ما، فوق درجات حجرية صغيرة، درجتين درجتين كل
مرة، في آخر الرصيف، وأدور إلى الورااء بعيداً عن سماء الليل
المفتوحة، بعيداً عن أخطار القضبان التي لا أدري أيها سوف يمر عليه
القطار المهاجم. وأدخل مرة أخرى إلى كن المحطة المسقوفة بالزجاج
المعتم والحديد المغروز، بين صفي الأعمدة الملفوفة الجسم، فأجد في
وجهي مصعداً ضخماً ليس له باب. ما أكاد أضع قدمي على أرضيته
الخشبية العريضة حتى يصطفق له باب ذو مفصلات منزقة تفتح
فجأة بعد انكماشها في مخائبها، وتمدد، فيوصد على المصعد الثقيل
الذي يهبط، بين أعمدته المكشوفة، على أرصفة متعاقبة أحدها تحت
الأخر، حتى يصطدم بالأرض. وينفتح الباب تلقائياً على مخزن شاسع
معتم ورطب الأنفاس في دور سفلي ليس فيه إلا أكوام الأخشاب
المرصوفة الشاهقة الارتفاع، نقيه وميته وعارية.

أجري مستريح الخطو، وصدري فسيح وهادئ، إلى فوهة منيرة
ساطعة، مشدوداً إليها بدعوة لا غلاب لها، فأدخل في نفق واسع
داثري الجدران كأنه أنبوبة مبطنة ببلاطات الخزف الصيني تومض
ببياضها الزلق ولا تنتهي ولا ينتهي جريي فيها، حافياً، أحس دفء
الجرانيت الأحمر الخشن الوجه تحت باطن قدمي. والضوء القاسي
يهبط عليّ ثم ينقطع، ويسقط عليّ من جديد، حزمياً متعاقبة لا رحمة
فيها، من مصابيح عريضة التدوير ومسطحة ومتقدة بوهج بارد،

تتلاحق فوقى إلى ما لا نهاية. وهواء الأنفاق المحمل برائحة خاصة يهب على وجهى الذى أحسه يتفصد برشح العرق، دون أن أنهج، وليس فى صدرى ضيق ولا غضب، ولست خائفاً، ولا أطلب شيئاً، كأننى فقط أؤدى واجباً، ولن أصل أبداً إلى شىء.

وكأنما هذا هو.

هذا هو حقاً قطارى. الذى إن ذهب فليس لى غيره.

قطارى يرتفع أمام وجهى عالياً، راسخاً

لكنه يقف على الناحية الأخرى من الرصيف، وأنا تحت بين القضبان وفى يدي حقيبة صغيرة ولكنها ثقيلة.

والعربة مرتفعة، سلالها الضيقة الحديدية يصعب ارتقاؤها من حيث أفق. الكمسارى يطل على من الباب السميك المفتوح إلى الداخل. وجهه غير حليق ومظلم وهو ينحنى على، يمد إلى يده من غير مبالاة. لم أسأل، ولم يقل شيئاً. أحاول أن أرفع يدي إليه، أن أصل بيدي إلى قبضته. يجب أن أصعد إلى القطار. هذا القطار، وحده، دون غيره، يحمل شيئاً أو شخصاً هو الأعز إلى، هو الذى يعطى كل شىء معناه. والجهد الشاق لا يكاد يحتمل، وفى ذراعى ثقل لا يطاق، وأبذل كل جهدي، ويدي لا تصل، بينما القطار قد أخذ يتحرك. لا أستطيع الصعود معها حاولت، والقطار يتحرك ببطء. العجلات الشريرة العارية تدور على مهل، ساكنة مصممة، ثم تتسارع قليلاً، وأنا أجري بجانبها تحت الباب المفتوح، يدي بالكاد تحت يد الكمسارى الممدودة التى ليس فيها كبير اهتمام على أى حال، ولكنها ممدودة إلى، لا ألحق بها، القطار أسرع منى، يستجمع

عزماً يفوق عزمي، ويفلت مني. ايقاع انطلاقه لا أدركه. يذهب عني. أفقده. وضعت في ساقى كل قواي، جرياً، ممدود اليد، مثقلاً بحقيقتي الصغيرة، وكان قدمي مكبلتان وهما تمخبطان الأرض، الآن، ترتفعان بالكاد وترتطبان بالأرض التي تشدهما بقوة وتقبض عليهما. أتحرك بكل ما في قلبي من اصرار، في استفاد. وهأنذا قد ضاع مني قطاري. تصلبت ساقاي وناء بجسمي كله وطء رازح في العضلات التي سفحت كل قطرة من جهدها. أجري بإيقاع ثقيل تتخبط ساقاي احدهما بالأخرى، وقد مضى القطار عني، بقوة، وصر صغيراً أجش ملاً سماء الليل. أطامن الآن من اندفاع ساقى اللتين لها ارادة خاصة وبائية ومستقلة. ولكني لا أجد في صدري حرجاً، أي حرج، ولا أجد أنفاسي تتدافع، بل كل شيء هادىء وفسيح، وأنا وحدي، لا أريد شيئاً، ولست حزيناً، ولا قلقاً، ولا واجفاً، بين القضبان المتواصلة المتباعدة في باحة هذه المحطة الساكنة الآن تحت السماء الخالية.

وسمعت النداء.

من يناديني؟

كنت في الشارع النظيف المبلط بالبازلت الأسود المحدث قليلاً، في وسط ساحة ضيقة تلتقي فيها قضبان الترام الدائرية التي تلمع من المطر، وقد أقلع الآن وترك في السماء سحاباً أبيض يطفو على الزرقة المغسولة. وأنا أريد أن أعبر الشارع من أمام جدار مدرسة السبع بنات المصمت الطويل المرتفع وقد نشع ماء المطر عند أعلى بياضه الكابي قليلاً.

عسكري المرور يستدير وينظر إليّ من أعلى بوجهه القاتم المدفون

العينين، ليس فيه أدنى تعبير، ويرفع ذراعه، يفتح لي الطريق بلا
عناية.

أخطو خطوتي الأولى، وإذ بالساحة قد ازدحمت مرة واحدة بأربعة
تراموايات قادمة هاجمة، مقدماتها الزرقاء عالية، مسدودة، تقتحمني
وأنا في سرّة الساحة التي ضاقت عليّ جداً. والسائقون الأربعة الذين
أراهم كثيرين، بلا عدد، من وراء الواجهات الزجاجية المرتفعة،
مهتدين يسكون بالعصى النحاسية الأفقية - القصيرة بقوة وتمكن
يهزونها أقل اهتزاز، بتصميم. والتراموايات الأربعة جميعاً من كل
الجهات تندفع إليّ على قضبانها في زئيرها الهادر. لا وقت للرجوع ولا
للتقدم ولا للحركة في أي اتجاه.

محاصر، بل قد أطبق عليّ الحصار.

لا أريد أن أموت وأنا محاصر.

أنا الذي دفعت بنفسي إلى هذه البؤرة التي لا خلاص منها،
وكأنني أنا الذي دعوت هذه القاطرات التي تقتحم على العالم،
وتسقطني في هذه الحلقة المتزلزلة بالطاقة المهتدة. فإذا لم أستطع أن
أحطم الحصار؟ كيف أثبت له؟ وكيف أخرج؟ وهل أنا الذي جئت
بنفسي فعلاً إلى هذه الوحدة التي تضيق عليّ، بقوتها المداهمة
المتفجرة؟

وأنا في وسط القضبان وحدي على البازلت الأسود الشرير الذي
يومض. والتراموايات جميعاً تنقض عليّ، لعجلاتها صوت احتكاك
الصلب، ثاقب تقشعر له كل جوارحي وتصطدم في دوي تتخبط له

جدران الشارع، تفرقع وترتطم، ثم يحل صمت تام. وأرى السحاب
الأبيض ينزلق على هواء البحر المبلول.

وأسمع النداء باسمي.

من يناديني؟

كانت تقف وحدها على الرصيف تحت ربوة الرمل العالية الناصعة
البياض، والنور ينسكب بين الأعمدة الباسقة بأغصانها الحديدية
الوثيقة الحنان، من زجاج السقف بعروقه الصلبة الرقيقة، ورواسب
الدخان القديمة باهتة عليه، مشعة بما تشربه من صفاء زرقة السماء.

وجهها المدور بسمرته الرقراقة يضيء، وشعرها القصير المغوي
تحيطه هالة من وهج شمس الظهر، وكأنه ذهبي مع أنه وحي
السواد.. عيناها تضربان قلبي بخضرتها الحوشية، صدرها بكبرياتها
ولدونه يداي تحمسان - وكأنما تتذكران - نعومته وحجم دورانه
وتماسكه الطيع، وهي شبقية كأكثر ما يمكن، كأخصب وأملأ ما
يمكن. هل هي التي تناديني؟ وفي عينيها هذه النظرة التي كأنها
متحيرة، وهي عارفة. هذا الضوء الذي يسقط عليها إنما ينبع منها،
مشيرة ومحبوبة بما لا يمكن أن يقاس.

دموع العمر كله لن تغسل وضر القلب الذي يشتعل مع ذلك
بوجد ساطع اللظى. محرق. أهو مطهر من اللوثات؟

كانت لدنة، مليئة، في فستان حريري مقفل على رقبتها، وهو
يسلم عليها. أحس يدها الرخصة متروكة له من غير رسالة. فلم
يقبل. جاش في صدره أنه يريد أن يقول لها كم يحبها. امتدت يده
إلى مؤخرة رأسها. في يديه من جديد دغدغة الشعر القوي الوحف،

حس النعومة وخشونة الملمس معاً في أطراف شعرها وعمقه . وقبلها بصمت على فمها المبدول بصمت، في البدء، المستسلم من غير حركة، ثم ارتعش فمها تحت شفثيه، صدرها المحبوك يرتفع تحت صدره، يده تتلمس مؤخره عنقها الغضة، أنفاسها تتسارع باللهفة القديمة التي يعرفها وتثيره، تنتقل إليه قبلتها، شفثاها متطلبتان متلمستان الآن تضغطان على شفثيه، فيها اجابتها، كأنما تطلب النجدة من الوحشة، وتستغيث من القهر الجسدي .

ثم انفلتت عنه بسرعة ورفق وتحوط، وهي تنهج وقد تخرج الدم في سمرة خديها الرخيمة الملمس، وعيناها فيها هذه النظرة الغائبة، صافية جداً، خالصة من كل غربة، وكأنها في الوقت نفسه مستغرقة في غربة نهائية .

كانت هي التي أفاقت . . أولاً، من بهرة المفاجأة .

قالت له : القطار . .

قال لنفسه : الحلم الحلم الحلم . وجوده الحجري الآن ثقيل . يتطلب أن يرفع عن كتفي .

وقال : كان الحلم خفيفاً، وطائراً معلقاً بين السحاب أرنو إليه بعين الاطمئنان، كأنه في متناول اليدين .

أما الآن فقد سقط عليّ بثقله الركين، ينوء بي، لا أستطيع أن أنهض به من الأرض .

ساقط أنا تحت وطأة الحلم لم أعد أقوى عليه .

يداي خاويتان تحتكان بالحجر والرمل الخشن، على مشارف مدينة متهكة .

كنا عائدتين للاسكندرية بعد أن قضينا الصيف في الطرانة قرية جدتي. ذهبنا من السكة الزراعية، على التربة الكبيرة المتدفقة بمياه الفيضان الحمراء السريعة الجريان. وكنا نركب أنا وأختاي الصغيرتان على حمارين، ومعنا الولد برسوم، ابن أرساني أفندي خال أمي، يجري حافياً - مع أنه ابن باشكاتب العزبة - إلى جانب الحمارين. رفع جلايته بيده، وخلع حذاءه الجديد ووضعته تحت إبطه، وأخذ يحث الحمارين بعصا قصيرة من خشب السنط. وكان برسوم أصغر مني قليلاً ولكن معرفته بأمور النساء وأناث الحيوان أكبر مما أعرف بكثير، حتى ولو كنت قد سبقته، من زمن، في يقظتي الشقية. وكان قد حكى لي طول الصيف عن مغامراته المراهقة مع القطط على سطح البيت في ليالي القمر، ومع الحمارة البيضاء في الغيط، وعن حكايات نسوان القرية وما يفعلنه في الذرة مع الرجال. وكانت حكايات.

ولما وصلنا محطة كفر داود، كان قطار الصباح قد قام وفاتنا. وجلسنا ننتظر قطار العصر في المحطة الصحراوية الخاوية، ولعبنا الاستغماية في المحطة كما كنا نلعب مع لنده ورحمة تحت شجرة الجميز الكبيرة أمام بيت جدتي. وفككنا الحبل من حول القفة الكبيرة،

وأكلنا من القراقيش التي صنعتها لنا جدتي من دقيق القمح والزبدة.
وشربنا من حنفية المحطة.

ركبنا قطار الخط الغربي بعربات الخشبية القليلة المقفلة، وكانت
النار تتوهج في نور العصر بحمرة اللهب الذي يفح ويتقد، مليئاً
ومتواثباً بقوة في بطن القاطرة المدور الأسود.

وعندما كان القطار الرقيق الصغير يشق جسم المساء بعرباته
التأرجحة كنت أرى على جانب القطار عيدان الذرة محترقة وعارية،
في آخر نور الشمس، نزعنا عنها أكوازها المغلفة بقشرتها الدسمة
الخضراء المضمومة، ووضعنا الثمار الغضة في أكوام عالية متحدرة
على رؤوس الغيطان، وحطام أوراقها متناثر على سواد التربة، صفراء
وهشة.

وانطلقت فجأة على التربة العريضة أسراب متعاقبة من العصافير،
داكنة اللون كأنها خفافيش صغيرة، أجنحتها رفيعة وطويلة ومشدودة
حتى آخر أطرافها، ترف قريباً جداً من سطح الماء.

وقبل ابتاي البارود كان الليل قد نزل ونامت أختاي على المقعد،
وأضيت المصابيح في العربة، مطلية بالأزرق، طويلة، وبيضاوية،
تريق نورها المنهك على المقاعد المصنوعة من ألواح رقيقة متلاصقة من
الخشب اللامع.

ومر القطار بعربات الجاز الصغيرة عليها خط عريض أسود ينزل
من الصنبور الأفقي في أعلى العربات وينف على بطنها الداكن الحمرة
في عتمة الليل المشعة، وهي مركونة على القضبان الجانبية في ساحة
المحطة.

كانت محطة ايتاي البارود مظلمة تماماً بالليل . وكنا قد نزلنا من الخط الغربي وصعدنا على الكوبري المعدني العالي فوق الأرصفة والقضبان، ونزلنا، أنا أحمل الشنطة المصنوعة من الورق المقوي البني التجزيع تقليد الجلد، وأختي عايذة ترفع على رأسها القفة الكبيرة الثقيلة التي تكدمت فيها القراقيش، والوزة المذبوحة، وصفحة السمن الجاموسي، كلها ملففة ومدكوكة ومصطفة بين اللفف والجلاليب المغسولة والقوط، وقد ربطنا اللحاف القديم الداكن اللون فوق القفة بحبل متين، مكشوقاً للعيان وله رائحة، أما أختي لويزة فكانت تضم بين ذراعيها ثلاث لفف صغيرة مربوطة بخرقه من القماش .

جلست بجانبني من ناحية، أختي عايذة التي ما كادت تبارح طفولتها بعد، ما يكاد صدرها الصغير يرفع فستانها الكستور الطويل، سمراء صعيدية، وشعرها جعد خشن يؤكد بسواده عينيها اللوزيتين، بنظرتها الحزينة، ومن الناحية الأخرى أختي لويزة، الصغيرة، بوجهها الأبيض وجسمها الممتلئ الطفلي، والتصقتا بي من برد الليل . كنا قد وضعنا الشنطة والقفة واللفف الأخرى الصغيرة على الأرض تحت المقعد الخشبي المقعر الظهر الداكن الخضرة في الليل، أمام جدار مبنى المحطة المظلم . كان مكتب الناظر وحده فيه نور أزرق كاب منصب مباشرة على عدة قطع التذاكر الحديدية الصغيرة، وراء الشباك بقضبانه المتقاطعة وفتحته الصغيرة .

دخل المحطة بصمت قطار عسكري طويل . الأرقام، والكتابة لذهبية الباهتة، غير مقروءة على بطن القاطرة المدور، والعربات لا نهاية لها، غاصة بالجنود الانجليز، امتلأت النوافذ المفتوحة بوجوههم

الملتبسة وأذرعهم المكشوفة في القمصان الكاكي بنصف كم، في النور الأزرق الشحيح، وهم يطلون على المحطة في نصف اليقظة ونصف النوم.

كان العطشجي في أول القطار يملاً خزانه بالماء الذي كان له صوت صلب متدفق وأجش إذ ينصب من خرطومه المضلع الثقيل الجلد المثبت في الصنبور الأرضي الضخم. وكان القطار أمامنا على الرصيف، يقف موحشاً ومعزولاً لم ينزل منه أحد ولم يصعد إليه أحد، ولم يقترب منه أحد إلا باعة السميطة والجين واليوسفندي الذي تحطف العساكر بضاعتهم الهزيلة الشكل، وكانت صيحات المساومة بالانجليزية المكسرة والعربية المكسرة تتجاوب في الليل. هرب بعض العساكر إلى داخل القطار دون أن يدفعوا، وجرى البائع على الرصيف من نافذة إلى نافذة ينادي جوني جوني جيف هير فايف بياستر جوني فايف بياستر، وضحكات رفيعة وغير حقيقية، عبت الذاهبين إلى موتهم صبياناً أراهم من النافذة ليسوا أكبر مني إلا بقليل، ناموا على المقاعد الخشبية في شحوب النور الأزرق. وانحنى ولد منهم له وجه طويل نحيل باهت اللون من النافذة أمامنا وهو يشير إلى أختي التي التصقت بي أكثر، وعيناها السوداوان مفتوحتان على سعتها وليس فيها خوف بل سؤال صامت عميق. وقال الولد بلهجة لم أكد أفهمها: بنت بنت كام أون.. فانتازيه.. كام ويذمي، وهو يضحك، وأحسست الدم يتدفق إلى رأسي وصحت به بصوت سمعته مخنوقاً وأبح: شط آب شط آب يوبلدي باستر وضاعت صرختي ورأيت الولد العسكري يذهب في الليل فاغر الفم يضحك ولا أسمع له صوتاً إذ تحرك القطار فجأة وهو يصفر صغيراً أجوف

غائر الصدي وينفث بخاراً أبيض كثيفاً في الظلام، ومرت النوافذ متسارعة الايقاع متتابعة مليئة بالوجوه الباهتة التي كأنما هي من الآن وجوه الميتين. ثم جاءت العربات المكشوفة المسطحة الأرضية تحمل دبابات صغيرة صفراء مشرعة المدفع مربوطة بسلاسل قوية، ومعدات مفكوكة، وغامضة، مدببة الخواف، مغطاة بأغطية من المطاط الأسود الثقيل. وسألني أختي لويزة ماذا كان يقول العسكري الانجليزي فرددت عليها بخشونة وعنف لا شيء لا شيء اخبرني أنت كمان فصمتت ورأيت الدموع تلمع في عينيها ولا تنسكب.

ساد المحطة صمت مفاجيء وأحسست هواء الليل بارداً على وجهي المندي بالعرق.

ضممتها إلي ونحن نقف على الرصيف الخالي تحت السقف الزجاجي المنير وأحسست صدرها الحرييري في حضني، صامتة الآن مستسلمة وقد أغمضت عينيها. استكنت ريجانتاي الخضراوان في رقرقة الحب الذي لم أكن أعرف عندئذ مدى الوجع الذي سوف يمضني من فقدانه ولا نخض الألم الذي سوف يطوح بي الآن في وحدتي الصامتة. لأواء هذا الصمت الذي يجار وحشياً وليس له أبداً لغة ولا صوت.

وعندما جاء القطار أخيراً دخل على الرصيف الآخر البعيد ولم يكن في المحطة الصحراوية الصغيرة نفق ولا سلام.

جرينا معاً متهاسكين بالأيدي إلى آخر الرصيف، وهبطنا، تتسارع أقدامنا بالرغم منا على نهاية الرصيف المنحدرة، ونحن ننظر لأحدنا الآخر، وكدنا ننزلق على القضبان المزدوجة، وضحكنا.

والقطار يتحرك إلينا فجأة ونحن تحت. تعلق مقدمته الحديدية
المربعة الشكل البارزة إلى الأمام، فوق رأسينا مباشرة. وأرى الخطوط
العريضة المعدنية لا إيقاف لها أمام عيني، قريبة جداً. ساقاي تفلتان
مني وأسقط على القضبان، أمام المقدمة تماماً. ويخطف في قلبي الروع
عليها. أين هي؟ أسئلة هي؟ ألم يحدث لها شيء؟ حنوي لها يعصف
بي وأنا على الأرض. السائق يطل من باب القاطرة على جنب
يشور بيد ويهتف بشيء لا أسمع، ويده الأخرى في الداخل تضغط
على شيء ما، على عمود، أو زر، أو حلقة. وأحس يدي على الزلط
والرمل الخشن تضغطان منه بقوة، بشدة، بكل ما في جسمي من أيد
واصرار، لكي أوقف معه القطار الزاحف علينا بجرمه الضخم،
يبطء، كأنما لن يرده شيء أبداً، فيه طاقة مكبوحة وساحقة. وأرى
المصباحين الأماميين المستطيلين بزجاجهما الصلب المظفاً تومض عليه
أشعة الشمس وتنعكس على عيني. وأجدها معي تسندني بذراعيها
كلتيهما، وأنا أقوم بحركة أحسها بطيئة لا تنتهي، وقد نرف من قلبي
كل حس كأنني غريب. ونحن نتحرك معاً أمام القطار الذي ينساب
وراءنا مباشرة، باصرار. والرصيف قد امتلأ فجأة بالناس يصرخون،
لا بد أنهم يصرخون ولكني لا أسمع صوتاً، ويلوحون بأذرعهم
ويجرون على الرصيف معنا وينحنون ناحيتنا، يصيحون بنا بلا شك،
وما زلت لا أسمع شيئاً. قدماي تتحركان أمام مقدمة القطار بالضبط
ليس بيننا وبينها إلا خطوة واحدة لا تزيد ولا تنقص. لا يصطدم بي
القطار ولا أسقط تحته. وهي معي لا أحس إلا بذراعيها تمسكان بي
مسكة خفيفة ولكن واثقة لا تتركني. وجهها هادىء وعيناها تلمع
فيها الشمس بخضرة داكنة ليس فيها خوف ولا قلق بل لا يكاد

يكون فيها اهتمام وإن كانتا مغروزتين في، ونحن نتحرك معاً بإيقاع واحد، بضع خطوات أيضاً، طويلة في الاحساس جداً، وكأنني أرقب شخصاً آخر يداهم القطار ومعه حبيته، متفرج، مدرك تماماً للخطر، ولكن بلا أدنى رعب، ولا أدنى توجس، أنتظر فقط. لو جاءت الصدمة النهائية الآن، وسقط كل شيء. لو تحطم كل شيء. لو حلت الظلمة الأخيرة والصمت. طبيعي، وحتم، وأكاد أريده، ولا أرحب به. ولكن لا أرفضه، لا أستسلم له أبداً. ولكن فليات..

القاطرة ما زالت تزحف علينا، تنزلق، وتكاد تلحق بنا. حتى يستطيع السائق بجهد جهيد أن يوقف القطار.

ونتوقف لحظة وما زال الصمت حوالينا ساطعاً وفسيحاً وكاملاً. ينحني الناس علينا يمدون إلينا أذرعهم ويرفعوننا من تحت.

للمرة الأولى أسمع لفظ الناس وصياحهم ونداءاتهم ودبذبة أقدامهم على الرصيف.

الشيخ الذي يلبس جلباباً أبيض مكويماً له ياقة رفيعة قائمة تدور حول عنقه الضامر، وعلى رأسه طاقية من القماش نفسه، في يده مسبحة ويده الأخرى متوترة الأصابع مشدودة نحوي، وأسمعه، وهو يهمس: لا حول ولا قوة إلا بالله. الحمد لله. الحمد لله. والست الفلاحة البيضاء الوجه، بالملس الأسود المكشكش الذي انحدر على كتفها، وهي تهف: اسم الله عليكم يا ضنايا. ا دانتو انكتب لكو عمر جديد، يا ختي! اسم الله عليك يا حبيتي! اللهم حوالينا ولا علينا. والطلبة، بالبنطلونات والقمصان، والكتب في أيديهم، ينزلون

جرباً إلينا ويحتاطون بنا. والفلاحين بأجسامهم النحيلة تحت الجلابيب
الصوف المفتوحة عن الصديري المززر بأزرار صغيرة كثيرة،
ووجوههم الصلبة المشققة، قد ركعوا نصف ركعة على الرصيف لا
يتكلمون، على استعداد أن يهبطوا للمساعدة. والعساكر بملابسهم
الكاكي وأحذيتهم السوداء الطويلة قد لحقوا بنا والتفوا حولنا الآن
يضحكون بخشونة وارتباك بعد التوتر والشدة، ويرفعوننا على
الرصيف بسواعد قوية. ونحن نعلو على هذا الجيشان المحتشد من
الأذرع والأيدي واندفاع النجدة المتدفق بالتهنئة على السلامة والحمد
لله.

ثم انفضّ الجميع فجأة واتجه الناس إلى أبواب القطار كأنما بخجل
قليل واضطراب بين الضحكات القليلة وثرثرة الحس بالنجاة
والانصراف إلى ركوب القطار.

هل كان بالأمس فقط أنه صحا من نومه جنبها محاذراً أن يوقظها،
وقبلها مع ذلك قبله خفيفة جداً على شفيتها، فردت على قبلته
وابتسمت وهي نائمة؟ ونزل، حريصاً على صمته وهدوئه، وانتهى
من «طقوس الصباح» - كما كان يقول لها، فيضحكان - ولبس في
السكون الصباحي التام وهي مستغرقة في نومها على سريرها؟ كانت
قد قالت له: سيرنا.

وكانت الملاءة الخفيفة تغطيها حتى الوسط، وفخذها العارية
السراء، محتشدة بشبقيتها وجسدانيتها، تخرج عن الملاءة، وفخذها
الأخرى كامنة مستترة، ولكنها هناك. كتفاها المدورتان تدعوان
شفتيه، وشعرها الأثيث مندى قليلاً من النوم ومشعث قليلاً، نزلت
خصلة منه رقيقة ومبلولة ملتصقة بجبهتها الصغيرة المستريحة، وخداها

متضرجان . كانت مستلقية على جنبها، كل معارك شهوتها قد انقضت، لحظة، وتركت جسدها الباذخ بحتاً، ممتلاً بحشده الخالص، في براءته غواية خاصة لا يمكن أن تكون - في حالة صحوه - بكل هذا الكمال . غائبة وكلها هناك في وقت معاً .

وكان الديك الأحمر على الحائط الحجري يفتح منقاره في زقائه الصامت المتصل وعيناه متوقدتان .

انحنى عليها، حفيماً بها، ورفيقاً وساكناً، يرد جواه إلى طي نفسه حتى لا تعصف بها برحاء شهوته وحنانه معاً، ولهفته، بينما كل جوارحه تنتفض عليه، وتجيئ وتوتر . كان ثدياها مضغوطين تحتها في النوم، مترفين في اكتنازهما وحريرتهما معاً . ثمرتاها الداكنتان قائمتان مع ذلك، مترعتان، جلدهما المشدود المدور مخدد لا يكاد بشقوق دقيقة جداً، في نور الشمس المتقطر من النافذة الزجاجية المفتوحة على الصحراء والأنقاض القديمة . أما الوهدات اللينة والربى الزاكية فملتفة بها الملاءة المتغضنة الملتصقة المهمة الثنايا .

أحاط كتفيها بذراعه، وامتدت يده تسند نهدها المضغوط وتلف به، وهمس في أذنها: حبيبي . . فتلملت قليلاً في راحة، وتهدت . وأحس نهدها وادعا إلى يده ومطمئناً فيها . ورفرفت عينها قليلاً وهي تموء من داخلها: أم م م . . بصوت خفيض مبطرة بالنوم الوثير . قال: أمشي أنا الآن . مسافر اسكندرية، وأعود الخميس بعد غد . خليك، لا تقومي . أراك بخير . قالت وما زالت نائمة بالفعل وهي تعطيه خدها لقبلة سريعة: مع السلامة يا حبيبي . . لا تتأخر .

وأغفت في صمت في ليل نومها المضيء، لحظة، في أول الصبح .

لم يكن قد خطا خطوة واحدة . وعندما اعتدل واقفاً استدارت على ظهرها وفتحت عينيها الواسعتين صاحية فجأة وقالت ، بصوتها الطفلي المستعطف ، فيه شكاة قليلة وتطلب للحنان :

- هل عدت يا حبيبي؟ حمد الله على السلامة . كم كان سفرك طويلاً . كم افتقدتك .

لماذا تأخرت؟

ترقرقت عيناه على الفور وعرف مرة أخرى طعنة الحب في قلبه .

وقد استقر الآن على مقعدهما الجلدي الصلب مسافرين معاً أخيراً في هذا القطار يقطع البراري المتموجة حتى سطوح المياه الملحة المتخثرة بحياتها الراكدة بين البوص والهيش .

ليس في القطار درجة أولى أو ثانية ، والناس حولها قليلون . عساكر نازلون اسكندرية في اجازة ، خلعوا البيريه العسكري اللين من على رؤوسهم الحليقة نائمين تقريباً ، وقد مددوا أمامهم أرجلهم في البنطلونات الكاكي والأحذية الميري . اثنان ثلاثة من البدو ، بالملابس البيضاء والسراويل القماشية الطويلة التي تضيق عند نهاية الرجلين ، في وجوههم نحول وصفرة محروقة . وشاب أعمى من المعهد حليق جداً ومتيقظ جداً ، رفع رأسه إلى فوق بعلمته الحمراء الملقوفة بالشاش الأبيض ، وجبته الطويلة على قفطان مخطط لامع ، يقرأ بصوت خفيض ولكنه قاطع وواضح : «ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى» والست البدينة أم ملس واثقة بجسمها الفياض بالأنوثة الممكنة ، تمصمص بشفتيها اللحيمتين : يا خويا . صدق الله العظيم يا مولانا . . ثم تدخل في حديث طويل مع فتى واضح أنه طالب

عائد لجامعته في اسكندرية، البلوفر الخفيف على قميصه الأزرق
الفاتح المستورد، والبنطلون الجيتز، لا شك اشتراها منخفضة ببطاقته
الجامعية.. وأنت يا بني فين؟ في الهندسة؟ ربنا ينجح مقاصدك
ويخليك لشبابك أنت واللي زيك يا رب. طب دانا عندي ولد في
الثانوية العامة السنة دي حيموت نفسه في المذاكرة يا عين أمه..
نفسه يروح الطب والا الهندسة. ربنا ينوله اللي في مراده هو
والسامعين، وهي تنظر وفي عينيها حساب ووزن، للفتاة بالمنديل
الأبيض السابغ الذي يلف وجهها وشعرها وينزل من على كتفيها،
وفي أذنيها قرط فضي صغير دقيق، وفستانها بأكمام طويلة ينزل إلى
الأرض، وسيور حذائها المفتوح تضغط على لحم قدميها. والبنت
تدخل ذراعها في ذراع الطالب الذي ينظر أمامه كأنه لا يحس ما
تفعل، بينما هي ترفع إليه وجهها معابثة ونصف باسمه. والست
تقول بصراحة الفهم والقبول: ربنا يهنئكم ببعض يا بني ويخبز لكم
في الخير.

عربة القطار تفرقع بانتظام، وهي تصطلي بشمس سبتمبر الهادئة،
والشبابيك كلها معوجة محشورة في مجراها، وليس لها زجاج، يدخل
منها الهواء السخن، قام الفلاح الجاف الجسم يحاول أن يغلق الشباك
في وجه حبات الرمل الذي تسفيه رياح القطار إلى الداخل، ولم
يستطع فجلس وهو يقول لنفسه شيئاً بصوت غير مسموع.

كانت الرمال ممتدة في نور الصحراء الأبيض حتى الملاحه التي
تومض بموج بنفسجي فاتح مأوه ساكن كالصفيح اللامع، يذوب عند
الأفق انبأهت الزرقة الذي ترتفع على حافته البعيدة عمائر من الهواء

المهتز، ركام من السحب لها طبقات كأبراج كنائس غامضة ثابتة وهفافة معاً، متشعة بلون الملح .

كانت ذراعه قد استقرت على كتفها الراسخة الطيبة، من وراء مؤخرة عنقها التي يحس نعومتها على قميصه الصيفي، ويحس أيضاً دغدغة شعرها الجعد اللين، ويده قد هدأت على أعلى ذراعها النازلة تحت الفستان الحريري في دوران كامل الامتلاء .

وسأل نفسه : هل انتهى البحث؟ هل وجدت ما أنشده؟ وكان في داخله يقين لا إنكار له . ونادى : يا شبلي يا شيخنا . هل المعرفة دوام الحيرة؟ وحقيقة المعرفة العجز عن المعرفة؟ وقال لنفسه : أهذه جوهرة حبي؟ وكانت مستكنة إليه، حمامته السوداء الوديعه الآن، وردته السرية . نفسها هادىء وايقاع جسدها فيه رضي واكتفاء باللحظة الصامته المشبعة . فأغمض عينيه عن ثرثرة القطار وجلبة الناس ودقات العجلات المنتظمة الرتبية التي أتخمت نفسه، مرة أخرى، بالخدر الذي يهبط في جسمه وتتفتر به جوارحه تحت وقع الهدات المتراوحة في اصرار لا يخطيء أن يأتي، مرة بعد مرة بعد مرة، دون أن يبدو أن سيكون له أبداً انقطاع .

وحكى لها أنه في ليلة عيد القيامة الموحشة التي جاءت قبل أن تسقط القدس، عاد ماشياً للبيت في شوارع الاسكندرية الصامته بعد أن انقطعت التراموايات . كان الاجتماع قد استمر طويلاً في الليل وكان الجدال واللجاج قد عصف وتقلب بالجماعة الصغيرة المتوقدة بالحماسة والشباب . وقال إنه كان قد كتب أخيراً مشروع البيان، وكانوا سيطبعونه من الغد بالاستئسل على الماكنة التي صنعوها بأنفسهم . وقال إن سذاجة ثوريتهم كانت بريئة وصافية وحمقاء

قليلاً، وكانت غضبتهم حاسمة ورفضهم قاطعاً. وخرجوا متفرقين، وعلى فترات، من المنزل الصغير في المكس الذي كان يقيم فيه سلامة العامل الوحيد في لجنتهم المركزية المؤقتة. وقال إنه ركب قطار المكس في الليل، خاوياً وقديماً وصغيراً، ونزل في محطة محرم بك، وكان يشبه هذا القطار.

رجعت إلى بيتنا في راغب باشا وأكلت سمكة بلطي مقلية باردة كانت أمي قد تركتها لي في طبق مغطى بفوطة نظيفة على مائدة الفسحة العريضة. وأويت إلى سريري وأخذت أقرأ في مجلة الشعر الدولية التي كانت تأتيني من باريس، بالبريد، حتى باب البيت. وفتحت الراديو الكبير الذي كانت له واجهة عريضة تضيء، عندما يشتغل، بالنور الأخضر. وتذكرت فجأة أنها ليلة عيد القيامة عندما سمعت صوت البطرك العجوز المنهك من الصيام الكبير، يرتل بالقبطية أسماء الأباء البطارقة القدامى جميعاً من مار مرقس الرسول حتى الأنبا يوساب، اسماً بعد اسم يبعث من أغوار القدم ويحيا بالترتيل، من جديد. رقية طويلة التسلسل لا تنتهي. وأحسست فجأة أنني ابن هؤلاء البطارقة العظام، آباء المدينة العظمى الاسكندرية والكور والجزائر، ولا يمكن أن تكون لي إلا أبوتهم، وأن ما كتبه منذ ساعات ونافحت دونه يربط بين قلبي وبينهم وبين الأرض المستباحة، برابطة حميمة خفية لم أكن أتيناها. وعرفت أن هناك تبريراً كاملاً لي.

كان الشاب الأعمى يصغي إلى حكايته باهتمام، صامتاً ووجهه مضيء ومتأمل وفيه وسامة لم يرها من قبل.

قالت له، هامة، باسمه: طول عمرك يا حبيبي لك شطحات
غريبة جداً.

وفي عتمة خفيفة كأنه يتذكرها ولكنه يعرف أنها هناك، في نصف
حلم نصف يقظة، سمع نواح القاطرة المترامي في السماء،
والارتطامات الحديدية التي يتردد صداها في الليل الفسيح خارج
حيطان غرفته. عويل معدني شاك طويل. بينما دق المنبه إلى جانبه
يأتيه سريعاً وعصبياً ولجوجاً. وأزيز طائرة ينطلق فجأة فوقه فيملاً
غرفته، يصعد وراءه نباح الكلاب التي تجمعت في الشوارع تجري
وراء صوت الطائرة وتطارده. كان البرص المصفر البياض ثابتاً مقلوباً
على بطنه ومفروش الأرجل على سقف الغرفة، في نور سماء الليل
الغامضة، وذيله الطويل لا يتحرك. وفكر أن بحر البقر ونجع حمادي
قد ضربت وأن الأطفال والعساكر يموتون. ولم يفكر في شيء آخر.

مر القطار بأسوار عريضة عالية في الصحراء عليها لافتات ضخمة
بالانجليزية والعربية، وبين الأسوار سيارات جديدة مستوردة من
ماركة واحدة لم يستطع أن يحددها. مر سيدس؟ فولفو؟ بيجو؟ بألوانها
الزرقاء والحمراء والصفراء والفضية، صفوفاً متعاقبة لامعة تحت
الشمس، كشواهد قبور معدنية.

ثم وقف القطار في وسط العراء الصحراوي دون تفسير، دون
سبب. ليس هناك محطة ولا مزلقان. السكون الغريب يحل فجأة
ويصمت الناس مرة واحدة ويهب الهواء المنعش في الصمت، جافاً
وخفيفاً، وفيه رائحة البحر، ورائحة الرمل السخن. دخلت من
الشباك ذبابة وحيدة زرقاء كبيرة تقلبت ألوان جناحيها الرفيعين في
شعاع الشمس، وهي تترأزيراً لحوحاً، عنيداً، يكهرب الأعصاب،

وتحوم في دوائر سريعة متقاطعة، حتى اندفعت في النور خارج الشباك. قالت الست أم ملاية يا ختي خير اللهم أجعله خيراً، هو فيه ايه؟ وقام الطالب، سحب ذراعه من ذراع زميلته، وذهب إلى مقدمة القطار ليسأل، ربما، عن السبب. وانخفض صوت الشاب المعمم وهو يلم حوله جبهته وقفطانه، يقرأ بصوت غير مسموع. وفجأة احتكت العجلات بالقضبان الحديدية في انفاضة حادة، وتقلقت العربات، واستجمع القطار قوته بالتدريج، وانطلق، بطيئاً في الأول ثم متسارعاً ثم منتظماً السرعة، دون تفسير.

ندخل الآن على الاسكندرية، والعربات تميل وتنحرف إلى اليمين، وتهتز بين القضبان المشابكة، وتتغير ايقاعات خبطات العجلات إذ تصطدم بالتحويلات المفتوحة. والقطار فوق ربوة عالية ضيقة يضرب بين الأعمدة والسيافورات التي ترتفع أذرعها وتنخفض وتومض بالأخضر الكابي بعد الأحمر المحتقن، والشوارع تحت جسر القطار خالية سوادها يلمع بيلل المطر وأشجارها تبدو، تحت، قصيرة ومقصوفة النواصي، ترقق فيها سيارات قليلة مسرعة. وتتوالى جدران المصانع والمخازن مقفلة وصارمة الشكل. كان البدو الثلاثة صامتين لا ينظرون إلى شيء، وجوههم منحوتة وجامدة. والبيوت الفقيرة الجدران عركتها تقلبات الجو والأمطار القديمة والشموس المتعاقبة، أدوارها العليا مفتوحة الشبايك تتلاحق على مهل كأنها تطل على القطار. وبعد وحشة الرمل ومياه الملح الشاسعة تبدو البيوت دافئة ومكنونة على طوابها الخميمة، تقترب من جسر السكة الحديد المرتفع حتى لا يكاد يفصل بينها وبيننا شيء. والقطار يبطيء قليلاً فوق الفلنكات ويظهر الآن على جانبه، بوضوح، الزلط

والحصي ونباتات الحلفاء ويقع من الخصرة الباهتة، ونفايات ورق
قديم وزبالة جففتها الشمس.

نوافذ البيوت وشرفاتها الخشبية القلقة تكشف من غير خجل، من
غير أدنى حس بالخجل، عن حياة الناس الداخلية وملابسهم
الداخلية وأثاثهم الداخلي الرث الكثيف المزدهم بالكراكيب،
والجلاليب المرمية على مراتب بلا ملاءات، وفساتين ذابلة الألوان،
ومرايا مكسورة الأطراف معلقة بمسار وخيط على الحيطان وفوق
الأحواض والحنفيات، والآيات القرآنية بالخط الثلث الفخم وصور
مارجرس، ويدر لاما، وأسمهان، والملك فؤاد، مقطوعة من
المجلات ومعلقة في براويز مذهبة متقشرة الطلاء.

كان الشاب المعمم قد نام، مال برأسه على ظهر المقعد، والجنود
قد وقفوا، طوال القامة، بعد أن لبسوا أحذيتهم، يستعدون للتزول.

وجاء المبنى الرمادي الكئيب بنوافذه الضيقة، المتقاطعة بالقضبان
الرفيعة السوداء، وسوره المنخفض الموحش عليه أسلاك شائكة،
وقامت عساكر الحرس في أبراجها صغيرة، كالدمى، على أكتافها
بنادق لها ماسورة طويلة هشة.

وتفتح الشوارع فجأة تحت الأكمة التي ينزلق عليها القطار،
وترتفع اعلانات الكينا الحديدية فيها رأس أسد ضخمة ووديع ناتيء
الأنياب وله عيون انسانية جداً. وتكنات بلوك النظام بجدرانها
الكالحة، ونوافذها المربعة، منشوراً عليها الفانلات والسرراويل العبك
المصفرة الطويلة الرجلين، والبدل الكاكي المغضنة الداكنة من بلل
الغسيل. ثم مستشفى الرمدي يبدو عالياً إلى جانبنا، أنيقاً، وحيطانه

بالطوب الأحمر الداكن، وله أبراج وأعمدة رشيقة هيلنية الإيحاء،
وحوله أشجار النخل السلطاني السامقة تنوس جدائلها المدورة في
زرقة السماء.

نظر الطالب المترفع إلى زميلته المحجبة المعابثة بنظرة فيها نصف
ابتسامة. وقالت الست أم ملاية ملس حمد الله على السلامة. ولف
الفلاح العجوز مسبحته حول اصبع يده، وتنحنح في تشوف مشاركة
الوصول.

ونحن ندخل في هواء البحر الرطب إلى ساحة معقدة بشبكات
القضبان المتوازنة والمنفرجة والدائرية ذاهبة في كل الاتجاهات،
وأعمدة السيافور المتتابعة عن قرب، والمخازن الجانبية الحجرية
والخشبية عليها تعريشات كثة من اللبلاب وتحت جدرانها نباتات التين
الشوكي والعتر البلدي، والقطارات المركونة الخالية، وعربات
البضاعة المقللة وحدها من غير قاطرات، جدرانها لها لون صديء
وعليها أرقام طويلة جداً بالانجليزية، مهملة.

وفي العربة كلها تنهيدة راحة فقد أوشكت رحلتنا على الانتهاء. ثم
دخل القطار فجأة في النفق.

أطبقت الظلمة الكاملة مرة واحدة وارتفعت صرخة ثاقبة قصيرة،
من الفرع، وصيحات الركاب الملهوكة. وكان القطار يخبط في
النفق.

خطر في ذهنه أن هذا النفق القصير تحت كوبري الحضرة لا يكمن
أن يستمر طول هذا الوقت. واشتدت ضمة ذراعه حول كتفها،

وأحس جسمها الوداع، بكامله، لصيقاً به، دفيئاً وناعماً ومليئاً، من غير خوف، فيه الأمن به، والتسليم له.

كان القطار يندفع متحدراً إلى الأمام كأنه يغوص بمقدمته إلى عمق يزداد غوراً كلما مضى، يصطدم ويقرقع، في طريقه إلى جوف الأرض، وقد أطردت سرعته وكأنها اكتسبت عزمًا جديدًا لن يلويه عنه شيء.

كل شيء يجري في ايّاق خاطف، والدقات المتلاحقة تزداد ارتفاعاً في النفق الضيق، ويتضخم صداها إذ تلتطم بجدران الحيز المحبوس. وكأنما تجمد الناس في هذه الانفجارات المتعاقبة القعقة، وصمتوا تماماً، وتشبث كل منهم بمقعده في العربة التي تهبط مع سلسلة عربات القطار، لن يوقفه شيء الآن. اصطفاق الحديد ولجب الحديد في الظلمة الحاشدة التي أخذت تشف قليلاً، وهو يرى كل من حوله ساكنين بلا حراك، ولا يرى في ذلك أدنى غرابة ولا ما يستدعي السؤال.

يحس ثقل رأسها الهين على كتفه، وشعرها الوحف تحت عنقه، مستكناً إليه، وهي نائمة. خديته الموموقة المشتهاة التي لانت له الآن، طيبة في حضنه، ووثيرة. هناك صمت عميق في قلب هذا العجيج الموقع المنتظم الدقات. وهي قد ألفت برأسها إليه. كأنما لا مكان لها في العالم كله إلا على كتفه ولا اطمئنان لها إلا تحت ذراعه. وفخذها اللفاء تحت النسيج الحريري الدمث يحسها إلى جانب رجله. ويدها الرخصة في يده، على حجره، مسترخية وهادئة في ثقل النوم.

في جوف الحوت المقتحم اللجج دعوتك فاستجبت إلى دعائي من

قلب نومك . وعندما طرحني إلى عمق الجب أحاطت بي مياه الحنو الكثيفة الساجية وانفتح لي هيكل قدسك السلس المواتي، اكتفتني غمرات جسدك المترقق بين ذراعي، في العتمة الشفيفة، والتف بي عشب البحر الغض المترجرج في موجه . أحاطت بي وهدتي اللينة وتفتحت لي مغاليق كتزي . وكان اصطفاق الصنوج مساطع الدوي ونهائياً .

واندفع نور الشمس فجأة في القطار .

في اللحظة التي انتهى فيها النفق أحس أن القطار قد اصطدم صدمة أخيرة بشيء مطاوع وهين القوام . ووقف .

كان الناس يتدافعون بصمت، كأن ليس في الأمر شيء غريب، كأنهم ينزلون إلى المحطة التي يعرفونها، وكل منهم مشغول بهومته وحده . وثب الجنود، كعادتهم على كل حال، من الناقدة . وكان الشاب المعمم هادئاً يتحسس جدران القطار وظهور المقاعد الجلدية بيديه، من غير لهفة، في طريقه للخروج والولد يحيط بذراعه خصر فتاته ذات الفستان الطويل، يسندها، وكأنه غائب لا يسأل ولا يهتم حقاً، كأنه فقط يؤدي واجباً .

كانا معاً متمسكين بالأيدي في ضمة حميمة ويائسة، عندما سقطا من باب القطار في نور الظهر الفسيح . غاصت أقدامها في الرمل الناعم . وكان شاطئ البحر أمامها مباشرة، والموج يأتي وينحسر، مياهه المزبدة تضرب صخوراً صغيرة مدبية ومشعثة، قديمة الصفرة، منقورة بحبيبات دقيقة سوداء، وتذوب رغوتها بحفيف هين على الرمل، بين الصخور .

مقدمة القطار مدفونة بأكملها في الرمل، كأنما قذفتها قوة الاندفاع الأخيرة. وبقية العربات ما زالت تحت الجسر الحجري العالي، واقفة في عتمة النفق المدور الطويل. ولم يعد هناك أحد.

والبحر فسيح، شاسع، نقي الزرقة، تلعب عليه خطوط الزبد المتعرجة ترغى وتختفي. كانت الأعمدة الحديدية الناحلة معوجة وساقطة على الرمل، وأنقاض المحطة تحيط بها، على شاطئ البحر. الأحجار الضخمة ساقطة وصامتة كأنما أطاح بها زلزال، حوافها مكسورة بين أكوام من الهدد والزلط. وعوارض حديدية محترقة ومتلوية شاخصة من بين الركاب. وقضبان السكة الحديد متقاربة من أحدها الآخر أمام مقدمة القطار، ثم متطابقة ومغروزة في الرمل. وأمواج السقف الزجاجي ما زالت معلقة في الهواء، جانحة، تهدد بالسقوط، ولكنها ثابتة، مدلاة من عمود مائل واحد قد استقر، في وضع لا يصدق، بين نتوءات الرمل والحجر والحديد.

كانت تقف إلى جانبه، جسمها الغض يلخص له العالم، بلغة حميمة من غير صوت.

وتحت أقدامها مباشرة، تحت حطام المحطة المدمرة، كانت هناك هوة محفورة، عميقة، ضخمة وواسعة، وجدرانها المتهاسكة غائرة. وعلى قاعها العريض، تحت، بعيداً، تتحرك قامات صغيرة تحمل على أكتافها قفف الأسمنت المخلوط. من أين جاؤوا بها؟ ليس هناك على الحافة إلا كتل مكسرة متهاوية تكاد تنقض من على طرف الحفرة الفاغرة، والأرض رملية تحتها، هشة ومتفتتة.

ورأى، من غير دهشة، اثنين من الصعايدة، تحت، ينفصلان عن

صف الناس، رأهما صغيرين جداً كأنه يطل عليهما من حالق،
يتحركان حركة ايقاعية بطيئة موزونة، وفي أيديهما عصي التحطيب،
مرفوعة، وهما يصطدمان بالعصي، ويناوران، يرجعان ويتقدمان،
يتقاربان ويتباعدان. ويدوران أحدهما حول الآخر في رقصة موسيقى
رجولية، والجسم مشدود بكبرياء وخفة.

أحس الحافة تحت قدميه تكاد تفلت وتتداعى، فاشتدت قبضته
على يدها.

هبت رائحة البحر ملحية ومطهرة. ونظر إليها، ولم يتكلم، ولم
يبتسم، كانا، فقط، في وسط الأنقاض، معاً.

الاسكندرية ابريل ١٩٥٥

القاهرة نوفمبر ١٩٨٤

الفهرس

٧	وجه مقطوع
١٥	أشواق المرايا
٢٤	من غير إجابة
٣٢	مخلوقات ملكة عبد الملك
٣٩	بيت قديم
٤٨	ع المسرح
٥٧	على جسر ممدود
٦٥	القرد والأطفال
٧٣	رقصة الأشواق
٨٣	محطة السكة الحديد



General Organization Of the Alexandria Library (GOAL)

Bibliotheca Alexandrina

في عتمة أول المساء رأيت هذه المخلوقات
الشمعية، مائلة على جنبها، ثابتة الجوارح، تطير تحت
السحاب الذي بدأ يشفّ الآن من نور القمر المقطوع،
تحملها ريح خفيفة. ومن بينها فينوس. حية صغيرة
القد، ينبض جسدها، شمعية التقاطيع وجهها أعرفه،
وأحبّه، كم لثمته.

